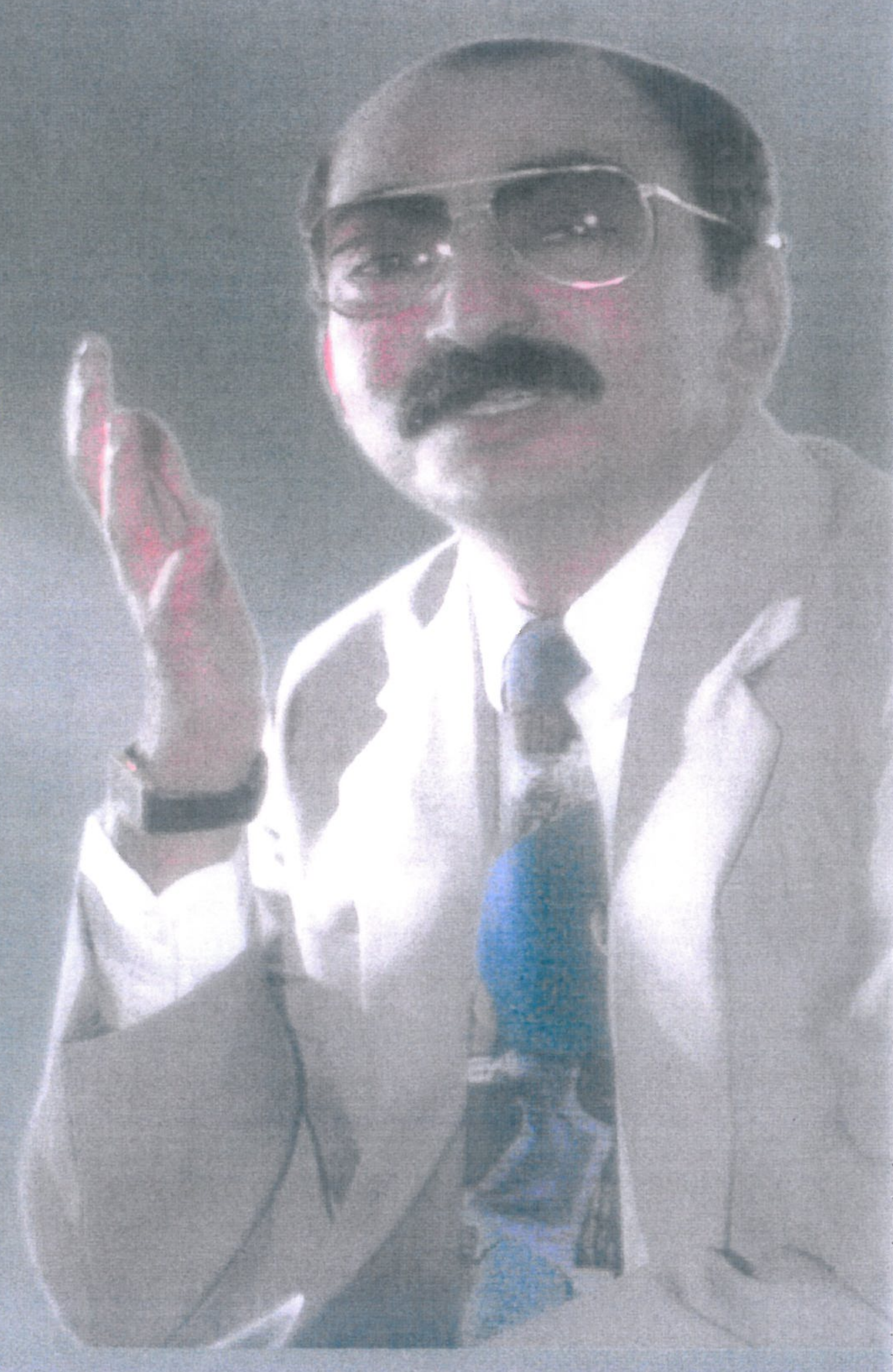
الآثار الكاملة

عبد العزيز مشري



الأعمال الروائية

(الجزء الثاني)

الوسمية

المجلد الثالث

الآثار الكاملة

المجلد الثالث

- عبدالعزيز مشري (الأعمال الروائية)
- إعداد علي الدميني
- الطبعة الأولى : 2010

- فراديس للنشر والتوزيع
- مملكة البحرين / ص . ب : 33226
- هاتف : 00973-39461232
- e-mail: musawi2000@hotmail.com
- e-mail:darfaradees@gmail.com

يصدر هذا المجلد الثالث من الأعمال الكاملة للراحل
(عبدالعزيز مشري) عن أصدقاء الإبداع
أصدقاء عبدالعزيز مشري

أشرف على إعادة صف وتصحيح ونشر هذا المجلد

علي الدميني
الظهران – الدوحة 31942
ص. ب : 38658
يناير 2010 م

عبدالعزيز مشري

الأعمال الروائية

(الجزء الثاني)

الآثار الكاملة

المجلد الثالث



للنشر والتوزيع

الفهـــرس

عبدالعزيز صالح بن محمد مشري

ولد في قرية محضرة، بمنطقة الباحة(الواقعة جنوب منطقة الطائف بحوالي ٢٠٠كـم) في المملكة العربية السعودية في عام ١٣٧٤هـ.

تفرغ للقراءة الذاتية و الرسم والكتابة الإبداعية مبكراً، حيث أعاقته ظروفه الصحية عن استكمال دراساته، أو الانتظام في عمل وظيفي.

تميز بغزارة الإنتاج وتنوع الاهتمامات(قصة - رواية - شعر - رسم - خط - موسيقى - كتابة اجتماعية وأدبية) ونشر أعماله في الصحف والمجلات السعودية، والعديد من المجلات العربية، وقد صدرت له الأعمال التالية:

١- باقة من أدب العرب (وهو عبارة عن مختارات تأسيسية من نصوص التراث العربي) عام ١٩٧٣م

٢ - المجموعات القصصية القصيرة التالية:

(وقد أعيد إصدارها من قبل «أصدقاء الإبداع - أصدقاء عبد العزيز مشري»، ضمن مشروع إعـادة نشر أعماله الكاملة، في المجلد الأول عام ٢٠٠١م)

أ - موت على الماء(النادي الأدبي بالرياض - عام ١٩٧٩م)

ب - أسفار السروي (نادي القصة السعودي - عام ١٤٠٦- ١٩٨٦م)

ج - الزهور تبحث عن آنية (نادي جازان الأدبي - عام ١٩٨٧م)

د - بوح السنابل (نادي الطائف الأدبي - ١٤٠٨- ١٩٨٧)

هـ - أحوال الديار (النادي الثقافي الأدبي بجدة - ١٩٩٣م)

و - جاردينيا تتثاءب في النافذة (إصدار خاص ١٩٩٨م)

٣- كتاب «مكاشفات السيف والوردة» (سيرة أدبية - إصدار خاص - عام ١٩٩٣م)

٤- الأعمال الروائية (الجزء الأول - المجلد الثاني من أعماله الكاملة والصادر في عام ٢٠٠٣م)

وقد تضمن هذا المجلد إعادة نشر كتاب «مكاشفات السيف والوردة» إضافة إلى الروايات التالية:

ا - الغيوم ومنابت الشجر (مختارات فصول المصرية عام ١٩٨٩م)

ب - ريح الكادي (المؤسسة العربية للدارسات والنشر - عام ١٩٩٢م)

ج - الحصون (دار الأرض بالرياض - عام ١٩٩٢م)

د - صالحة (مختارات فصول المصرية - عام ١٩٩٦م)

٥- الأعمال الروائية (الجزء الثاني - المجلد الثالث من أعماله

الكاملة، وسوف يتضمن إعادة نشر الأعمال الروائية التالية):

أ – الوسمية (دار شهدي – القاهرة – عام ١٩٨٤م)

ب – في عشق حتى (المؤسسة العربية للدراسات والنشر – ١٩٩٦م)

ج – المغزول (وأصدرها أصدقاء الإبداع – أصدقاء عبد العزيز مشري، بعد وفاته – أواخر عام ٢٠٠٥م)

٦ – ترك المخطوطات التالية:

أ – القصة القصيرة في المملكة «وتضمنت بعض قراءاته النقدية وتأملاته عنها»

ب – ترنيمة – نصوص شعرية

كما ترك عدداً كبيراً من اللوحات الزيتية والرسومات المخطوطة بالحبر، ويطمح أصدقاؤه إلى طباعتها في كتاب.

شارك في تحرير الملحق الأدبي لجريدة اليوم «المربد» من عام ٧٥–٨٢م، وأسهم بالكتابة الأدبية والاجتماعية في مختلف الصحف السعودية، وينوي أصدقاؤه اختيار بعض تلك المقالات وإصدارها في كتاب.

وقد تزوج في عام ٨٠م من السيدة «ناهد»، وهي مواطنة أردنية من أصل فلسطيني، وأهداها مجموعته القصصية الثانية «أسفار السروي»، وحيث لم ينجبا نظراً لظروفه الصحية، فقد اختار – بطريقة نبيلة – أن ينفصلا شرعياً، ليتيح لها فرصة الزواج والانجاب، وقد انفصلا في عام ٩٠م.

أصيب بمرض «السكري» في وقت مبكر من حياته، وأدّت مضاعفات المرض، والعقاقير الطبية مع مرور الزمن إلى التأثير على البصر، واختلال توازن حركة المشي، والفشل الكلوي واضطراره لغسيل الدم «الديلزة» ثلاث مرات في الأسبوع، وكذلك تعرضه لضغط الدم.

أجريت له عملية لزراعة الكلى، في مستشفى الملك فهد بجدة، في النصف الأول من عام ١٩٩٣م، وساعده نجاحها على استعادة تألقه وإبداعه في السنوات الست الأخيرة من عمره، ولكن «الغرغرينا» بدأت بغزو أطرافه، فتم بتر إصبع من يده اليسرى، بترت القدم اليمنى، وبعدها تفاقم الحال حتى تم بترت ساقه اليسرى كاملة.

توفي رحمه الله في مستشفى الملك فهد بجدة في يوم الأحد في الساعة السادسة إلا ربع مساءً، بتاريخ ٧/ ٥/ ٢٠٠٠م، وكان إلى جانبه شقيقه الوفي أحمد مشري، وصديقه المخلص «سعد الدوسري»، وقد ووري جثمانه الثرى في مقبرة الفيصلية بجدّة، ويقع قبره في الجهة الشرقية من المقبرة على مسافة أربعة أمتار من الجدار الشرقي، وثمانة أمتارمن الجدار الشمالي.

تلتقي «البنى الأساسية» للروايات الثلاث المنشورة في هذا المجلد، حول ما يمكن وصفه بمحور «التناص الحياتي» بين السارد وسردياته، فيتبدى لنا تماهي الروائي مع حياته في أعلى ذرى تشابكاتها، من خلال شفافية المكاشفة والتدفق العفوي لسرد الحدث، ورسم المكان والشخصيات، بحميمية لاذعة.

ف «الوسمية» ،كأول تجربة روائية للكاتب، تتسم بوجدانية العلاقة بين الكاتب وموضوع نصه، بما حفزه على رسمها لغويا وفق «لغة المعيش اليومي» في مجتمع القرى، التي كانت تشكّل «تعاونيات» حياتية طبيعية، تحكمها وتتجلى عبرها جماليات ومدلولات العلاقات البشرية في أي مجتمع قروي بسيط، يعيش على إنتاج معرفته بذاته، وإنتاج خيراته لنفسه، وإقامة علاقاته المتوازنة بين أفراده، ومع المحيط المجاور.

و لذا يغدو توظيف «لغة المعيش اليومي» – التي سكّ مصطلحها هنا الدكتور معجب الزهراني – كتعبير عن رغبة عاطفية دفينة، في إيجاد معادل فني قادر على الاحتفاظ بالذكرى «الإنسان / المكان» من خلال تكريس البلاغة الخاصة لتلك اللغة اليومية البسيطة، في كتابة النص.

وهذا المنحى المختلف هو ما جعل رواية «الوسمية» تأخذ موقعها في الحقل الروائي المحلي والعربي (اتفاقاً وافتراقاً)، منذ البدء.

أما رواية «في عشق حتى»، فإنها نص إبداعي، تتشاكل فيه «عذرية عشق قيس وليلى» ولذة الحرمان الذي عاشاه، مع تأملات العلامة الفقيه «إبن حزم» لحالات الافتتان والتوله في «طوق الحمامة»، لتفصح جذور تلك الأمثولات العاطفية عن أشباهها المعاصرة في افتتان العاشق بمعشوقته، فكرةً كانت، أو حلماً، أو امرأة، عبر تجليات عشق الروائي ل «حتى» !

وحين نصل إلى الرواية الثالثة «المغزول»، فإننا سنقرأ حالة أخرى من إبداع الذات لكتابة حياتها في عمل مختلف، يواجه فيه الروائي موته، بل ويذهب إلى ما هو ابعد من ذلك في رؤية«ما بعد الموت»، لنمضي معه في هذا «النص» لمعايشة أشد لحظات الألم، وفقدان الوعيٍ، ولقاء الموت و ما بعده، ومن ثم عودة الروائي إلى الحياة، محملاً بنقض تراجيديات الأساطير والواقع التي يحملها الإنسان في حياته.

ولعل من الصدف العجيبة والدالة أيضاً، أن يعيش «عبد العزيز مشري» هذه التجربة ويكتبها روائياً في نفس الفترة التي عايش فيها شاعرنا العظيم «محمود درويش» تجربة «مواجهة الموت»، وإبداعه لملحمته الشعرية المتفردة «جدارية محمود درويش» في عام ١٩٩٩م !!

** ** **

أصدقاءنا

بهذا المجلد الثالث من «الأعمال الكاملة» للراحل الباقي «عبد العزيز مشري» يسعى «أصدقاء الإبداع -أصدقاء عبد العزيز مشري»، لتقديم أعماله الخصبة، والمتعددة الاهتمامات والسمات الإبداعية، إلى قرائه والمهتمين بإعادة التأمل فيها وقراءتها نقدياً، ليبقى صوته الإنساني والوطني حياً، كما يستحق، في سيرته العطرة، وفي غيابه الحي وحضوره بيننا.

و تبقى كلمات للتاريخ، ولذكرى الراحل، ورغباته، تستدعي منا الإشارة إلى أننا قد أجرينا بعض التعديلات الطفيفة على عبارات من رواية «الوسمية»، و رواية «المغزول»، تقديراً للضوابط الاجتماعية، (التي نعرف أن سقف حرية التعبير الإبداعي في المملكة، قد تجاوزها، ولكن !!)، آملين - بحنان خالص - أن يسامحنا «عبد العزيز» على ما قمنا به من اجتهاد!!

علي الدميني

أحمد مشري

من أعضاء مجموعة

«أصدقاء الإبداع - أصدقاء عبد العزيز مشري»

إبداع «السيرة الحياتية والثقافية» في تجربة عبد العزيز مشري (حوار مطول)

أجراه مع الكاتب: علي الدميني

كنا على الموعد في الخامسة مساءً، في شتاء دافئ يغمر مدينة جدة، وحين دخلت الباب الرئيسي جاء على كرسيه - الذي يجيد أخوه أحمد دفعه «وسواقته» عبر الدرج والممرات - ولم يطل عناقنا فقلت له: أتبخل علينا يا عبد العزيز أم أنك تحتفظ بالعناق لغيرنا ؟ ضحك وكان «الشنب» الكثّ المزدان بأولى الشعيرات البيضاء يهتزّ بأناقة.

جلسنا في فناء البيت الصغير حيث تُقاسمنا شجيرة الكادي وحوض الريحان شطر المكان.

- ماذا تشرب ؟

- شاي ثقيل ورأس معسل بحريني

لم يطل الوقت حتى اكتملت عدة المجالسة وبدأ نقيق «الأرجيلة» يشاركنا حفاوة اللقاء.

قلت له: يا عبد العزيز.. أنت من عائلة كريمة تحظى بمحبة واحترام غالبية أهل قرية «محضرة» (وليس ٩٩٪) منهم، وقد توارث أجدادك ثم والدك هذا التقدير الذي أهلهم للحصول على لقب

«شيخ القرية»، فهل تعد نفسك لهذا اللقب بعد عمر طويل إن شاء الله؟

- قال يكفي ما احتمله جدي وأبي من تبعاته.

- قلت، وهو يعبّ من «لي» الأرجيلة: سأكون أول الرافضين لتعيينك في هذا المنصب لانه لا يليق بقرية مثل «محضرة» أن يكون شيخها روائياً يكشف المستور والمسكوت عنه أو كاتباً مشاغباً وعنيداً مثلك، لا يثنيه عن رأيه «سبعة سيوف».

غرق في الضحك وقال:

هذا رأيك باعتبارك أحد المناوئين لزعامتي، ولكنني أعرف أنك قد عايشت تلك القرية التي كانت برلماناً تلقائياً شديد الإنصاف ؛ في ساحة مسجدها - يوم الجمعة -.. حيث كان الجماعة بعد أداء صلاة الجمعة.. يخرجون من باب المسجد، يتسابق كل منهم إلى مقعد أو متكأ على «الحجيرة» المحيطة بتلك الساحة، يستمع للجديد والمطروح.. واحد يشتكي من التعديات البهائمية، وآخر يشكو من مظلمة في مزرعته، وثالث يدعو الجماعة لعزيمة زواج ابنه أو ابنته، أو دعوة لـ«طينة» سقف البيت الحجري الذي بني ونما بين عيون الكل.. هل رأيت كيف كانت تأتي المرأة ملفوفة بالبياض ملثمة وفي يدها بنتها أو ولدها الذي مات أبوه وتركهم في أمانة الجماعة دون وصية كالعادة.. سيقف الكل مع حقها في البيت والوادي وسبيل الطريق ومجرى ماء المطر إلى مزرعتها.. فمن مد يده أو زهقت رجله أو لسانه.. فإن «الحق» يجري عليهم جميعاً !

شيخ القرية هو واحد مثلهم لا يتميز بأية ميزة سلطوية أو امتلاكية.. سوى أنه معروف بحب الخير والعدالة والرأي المسموع

الذي لا يخالف رأي الاغلبية الصادقة والمحقة (صغيراً أو كبيراً.. امرأة أو رجل).. لم يكن فقيه الجماعة ولا قاضيهم أو إمامهم.. لكن لكل شخص وظيفته واختصاصه الملائم له حسب قدراته الإمكانية والتقديرية المعروفة.. مع احترام الكبير من قبل الاصغر سنا، حسب العرف القروي !

لم يعد اليوم هناك وحدة إنتاجية تجمعهم ولم يعودوا يلتقون في حوش المسجد بعد الصلاة ليناقشوا أموراً مشتركة، ولم يعد يجمعهم شاعر أو رقصة، أو مشرب ما، أو مواشي. بقي أفراد من جيل آبائنا يرددون ما قاله شاعرهم القديم عن شباب يهزؤون بالماضي.

«يتهزا بلون الشيب والشيب يتهزا بنا»

(١) – يا عبد العزيز

حين أتصل بك هاتفياً يجيبني صوتك الأجشّ معلناً عن قسوته وكأنه صوت «الجعري»، بينما حين يقابلك الآخرون يجدون اللطف والوداعة فهل تحتمي خلف صوتك الهاتفي ؟ وهل تخشى أن يلتهمك شيء ما ؟ إنسان مثلاً أو حيوان ما، من خلال التليفون ؟

• كلا لم تأت ببالي هذه التفصيلة التي أوردتها.. ولا تخفّيت خلف صوتي خوفاً أو طمعاً.. ربما يشبه صوت الضبع «الجعري» كما وصفه الصديق المازح دوماً «د. سعيد بن فالح» والذي ينوي به إخافة الحمير من الضباع - سامحه الله - متناسياً أن الحمير هي التي كانت تقدم عملاً عظيماً في نقل «التوار» التي تصنعها قريتهم التي تصنعها من الفخّار المحروق إلى الأسواق !

(٢) – في نصوصك الغنية التي اشتغلت فيها على عالم القرية استثمرت الكثير من الشخصيات(كأنماط ودلالات) وجسدت جوانب عديدة من منظومة العادات والتقاليد والقيم والمكونات الثقافية لمناخ العالم القروي، وقد أبرزت من خلاله المعنى الرمزي والأسطوري للعديد من هذه الكائنات مثل الديك، والكلب والحمار والثور «أبو قرون» والبقرة.. إلخ

وسؤالي هنا يتفرع إلى شقين الأول:

بحكم معايشتك لعالم القرية الجنوبية ومكوناتها الثقافية فيما يخص مفهوم «الجد» الأسطوري لكل قرية.. لماذا لم تلتفت إلى هذا التكوين أو لماذا أغفلته في أعمالك؟ وهل تنوي استثماره مستقبلاً؟

أما السؤال الثاني فهو: ما تفسيرك لتلك الفكرة «للجد» التي ما زالت تستخدم بشيء من السخرية حتى اليوم في لحظات المرح والتندر والغضب، ما بين سكان قرية وأخرى فيما يخص ذلك «الجد» ؟

• حين أكتب الرواية عن عالم القرية في الجنوب.. فهذا لا يعني أنني «أنثروبولوجياً» ولا دارس أساطير ولا محقق أو كاتب خطاب اجتماعي بالتقارير.. مع أنني اعتقد أحياناً أن الكاتب المبدع هو كل هذا وغيره.. لكنه يصوغ الواقع وربما أعاد تركيبه حسب رؤيته الفكرية والفنية.

النقطة التي ذكرتها.. هامة وجميلة وتؤكد أن أهل القرى، لا يزالون الوحيدين الذين يمضون في سياق الشعوب القديمة.. فمسألة الجد الأسطوري «المرمز»، موجودة لدى الشعوب القديمة في كل العالم الشعبي تقريباً.. غير أن البعض – للأسف – لديهم مفهوم السخرية.. بل راحوا ينظرون إلى مسالة تطبيع الوحدة

الاجتماعية القروية أو القبيلة بطباع «الجد» الرمز.

إنها لم تغب عني.. غير أن المناسبة فقط لم تتهيأ فيما سبق من كتاباتي. ربما كان ذلك فيما يأتي.. فالتفاصيل المهمة كثيرة في حياة العالم القروي، والكاتب لا يستطيع أن يطرق كل الشئون، ولا يستطيع إلا أن يمر ببعضها مرور التلويحة باليد فقط.

• إذن ما هو الجد الذي ستختاره لقريتك محضرة بعد أن طلع العالم القروي -الذي كتبته في ملحمة القرى - من جذور حياة تلك القرية ؟

• كتبت لكي أحافظ على الذاكرة، لا لتغييرها، لذلك أرى أنه ليس من حقي تغيير ما استقر في أعماقها بالنسبة لذلك «الجد» الذي تعرفه، فهو لنا معاً.

(٣) - في بداياتك في كتابة القصة القصيرة كنت مهموماً بكتابة الرواية، وكنت تشير لي في معرض أحاديثنا آنذاك إلى رغبتك في كتابة الرواية بالاستفادة من تجربة الغربة في الدمام وحياة الصعلكة البسيطة التي كان يعيشها بعض الأصدقاء حولك، ثم كتبت جزءاً من عمل روائي أسررت لي بخطة سرديته عن رحلة يقوم بها شاب من أعلى الجزيرة حتى جنوبها عبر جبال السروات، وبعد ذلك فاجأتنا بعد عودتك من القاهرة بإنجاز عملك الأول «الوسمية» عن عالم القرية ؟

ترى هل هي الغربة وقد أحيت الحنين في قلبك ؟ هل هو عالم القاهرة، أم الوعي الذي وقف على قدميه في تلك المرحلة قد دفعك للعودة للذاكرة وتجسيد عوالم القرى ؟

• نعم حدث هذا في فترة صدور مجموعة «موت على الماء»

وهذه القصص تمثل الفترة المعيشية الثقافية التي تكونت بعد سفري من القرية إلى المدينة «الدمام»، ولعلك قد لمست البنية القروية البريئة والتي صدمت بصخب المدينة وإيقاعها مع أنها – بعد عقدين من إعادة قراءتها – وجدت أن القرية وعالمها متجذر في ذهنية القلم الذي سرد قصصها.. لكنها كانت ذهنية شاب متحمس لم يتلمس طريق خطواته الفكرية تجاه العالم والكون والإنسانية.. بحيث طغت الشكلية اللغوية «والمفردة المنحوتة» وزخرفة الصورة – حسبما جاء فعلاً في مقدمة الأستاذ «علي الدميني» وكان يسبقني بخطوات واسعة ثقافياً وكتابياً. طبعاً المقدمة كتبها في أول المجموعة، والحقيقة أنني قد كتبت ما سميته آنذاك بالكتابة الروائية الناقصة شكلاً ووعياً، وأذكر أن صديقاً كان يعمل معنا في جريدة «اليوم» كان متشجعاً لها «نبيه الشعار» من سوريا وكان يقرأ مقاطعها ويسجلها بصوته (روى لي أنه كان مذيعا في الإذاعة السورية) وهو شاعر جيد.. ولكن هذا لا يبرر أن أكتب الرواية وقتها لعدة أسباب أقولها فيما بعد زمانها.. منها: العمر. التجربة الواعية بمسئولية كتابة الرواية خاصة وأنها شهادة اجتماعية مرتبطة بموروث عالم له خصوصيته وممارساته داخل محيط مؤسسي معلوم.

الحماس المناقض للتقليدية الكتابية الصورية الشكلية للحياة الاجتماعية لا يكتب الرواية: الوعي والإدراك بوظائف الكتابة هو الذي يكتب كتابة ذات قيمة.. الذاكرة.. المعايشة.. الطفولة.. المسئولية.. الموهبة.. وعدة مقومات.. هي التي تجعلك كاتباً على مستوى الرواية.. قد ترغب في أن تكون كاتباً روائياً.. لكنك لا تملك المقومات.. فهل يعني أنك أصبحت كاتباً روائياً.. لا اعتقد أبداً ما لم تعلم جيداً أنك تحمل في صدرك قولاً كبيراً وطويلاً يستحق أن

يوضع على الورق.

«القاهرة» أو غيرها من العواصم العربية ذات مساحة تستوعب الكاتب والكتابة والقارىء والمستقصي.. لكنها جميعاً لا تمنحك الهم الخاص الذي تكون فيه مع هويتك وانتمائك الخاص.. هي تمنحك عالماً غير منقسم في إنسانيته.. فالإنسان الكامل برجولته وأنوثته موجود. وهذا ما افتقدته في واقعنا، لذلك ربما فتحت القاهرة عيني على هذا الوجود الطبيعي للمرأة في الحياة والذي يشبه زمن الطفولة القروي لدى كل إنسان، وربما حفزني ذلك على العودة إلى العالم الطبيعي.. العالم السوي.. حيث يقف الرجل والمرأة على قدم الإنتاج المشترك والمساواة الإنسانية في كل مناحي الحياة.

(٤) – هل يمكن لنا أن نقف عند أهم الروايات التي قرأتها وما هي العناصر المميزة فيها التي بقيت في الذاكرة والمخزون الفني لديك، وكيف استفدت من بعضها ؟

• كأني أفهم من سؤالك أن ثمة تأثيرات قرائية للرواية.. بل لأعمال روائية معينة.. استطاعت أن تقدم لك نحتاً نمطياً على صعيدي الفن والموضوع !

اعتقد أن هذا لا يمكن أن يحدث بهذه الصورة.. إذ أن كتابة الرواية وفي عالم خاص بتاريخ صراعاته الطويلة عبر أداة إنتاجية محددة، وضمن مكانية معروفة ومن خلال معايشة منذ الطفولة، عجنت وخبزت الكاتب، وشرب من مواردها الثقافية الحياتية على هيئة فتافيت تربوية ومعيشية يومية مروراً بالتفاصيل والمناسبات والفصول.. أقول إن هذا لا يمكن أن يحدث لمجرد قراءة أعمال

روائية تتماثل مع مثل خصوصية العالم القروي الذي كتبت عنه.

القراءات الروائية باختلاف صورها وعوالمها القصصية والشعرية والتراثية وكل ما يمكن أن يقال عنها.. المحصلة التي لا تنتهي عند نقطة محدودة في الحياة وآنذاك - وقت إذ بدأت بكتابة الرواية الأولى «الوسمية» في القاهرة عام ١٩٨٢م (وكنت اعتبرتها تجربة روائية) كنت قد أعجبت بكثير من الأعمال وكانت جديدة علي منها أعمال «هنري ميللر» و«شينمو انشيبي» وتراثية كـ«أحمد بن إياس» و«أبو حيان التوحيدي» وأشياء أخرى.. جميعها وسابقاتها وبعد توقف طويل - بعد إصدار مجموعتي القصصية الأولى «موت على الماء» عام ١٩٧٩م.. توقفاً منلوجياً تأملياً.. رأيت أن الكتابة وقتها.. لا تحتاج إلى التغريب والبحث عن مادتها وعالمها من خارج ما يقع في الذهن من حكايا وأحاديث طويلة تكمن عند أصبع القدم وليست في جزر «الهونولولو» أو وديان «واق الواق»، يضاف إلى هذا الشعور بالغربة القاسية والمرهونة بظرفها الذي لم أجد معه إمكانية لكسرها أو النفاذ منها بمجرد خاطر العودة.. وما سببته من حميمية إنسانية قوية تجاه عالمي القروي الأول.

لقد رأيت أن الكتابة لا يمكن أن تصيب وجدان وذهنية كاتبها - الروائية تحديداً - إلا إذا كانت تغمس سن قلمها في دم كاتبها خزينة معيشته أو تجاربه وطريق رؤيته واستراتيجية.. قل محصلته الثقافية. لقد وجدت عالماً خاصاً وجديراً جداً بالكتابة.. فكتبت وكنت كلما انجزت مشروعاً اكتشفت أن ثمة تفتحات جديدة وعالم وجزئيات لا يمكن أن تنضب أو حتى يشوب مشوبها النقصان.. و هكذا.

(٥) - الذين يعرفونك عن قرب يلمسون اهتمامك الدقيق

بهندامك والمكان الذي تعيش فيه وانشغالك الجميل بنوع الساعة والقلم والولاعة والعقال والغترة ونوعية العطر حتى وأنت في ساعاتك العصبية مع المرض، وسيدهش الداخل إلى منزلك يا عبد العزيز بشجيرة «الكادي» وهي تحييه خضراء مبتسمة مشيرة إلى نبتاتها المتوالدة وبياض زهرة «الكادي» على تاجها رغم أنها تعيش في بيئة لم تكن معدة لها وسيدهش زائرك حين يجول ببصره على محتويات مكتبتك وستشده دقة تنسيقها وترتيب كتبها، ورغم أنك تنام في نفس المكتبة إلا أن كل شيء يبدو دائماً في قمة الإنسجام !

فما هذه القدرة على تنظيم ما يبدو عصياً على الانتظام واستنبات ما يبدو مخالفاً لمناخه؟ وماذا أفادك به هذا الذوق المميز في حياتك وكتابتك ولماذا تسلل «ريح الكادي» كعنوان لتلك الرواية ؟ وما دلالة تحوله إلى «جاردينينا» كعنوان لمجموعتك القصصية الجديدة؟ هل يعني ذلك تحولاً للذائقة الموروثة من القرية إلى الذائقة المعاصرة في المدينة ؟

• تعلم أن نبته الكادي المميزة الرائحة والخضرة لا تزرع في قرانا الجبلية - مع إننا نحبها وتتزين بها رؤوس الصبايا - فهي نبته تهامية النشأة هي و«الحناء» و«القطران» الخاص برائحته في قرب الماء وطلاء الأبواب وأشياء كثيرة ومميزة تتميز بها المنطقة التهامية الجميلة بأهلها وخصائصها ومناخها الدافئ.. لذا فربما كانت منطقة «جدة» المدينة الساحلية الحارة قريبة من مناخ تلك النباتات الواردة. نحن لا نستطيع أن نستزرع نبته الورد المشهور بذكاء لونه ورائحته وبتواجده الموسمي الربيعي في الجبال القروية بالجنوب. وهكذا وللمختصين في شأن الزراعة علم دقيق في هذا الأمر ليس ثمة سر ولا كشف إنما هو الرجوع الحميمي لتفاصيل المكان الطفولي وجماليات معيشته

وذكرياته، وبرغم بعد المكان على الإنسان يبقى يحن للأشياء التي ارتبطت باندها شيته ومعيشته الأولى.. أذكر عندما كنت في إحدى الولايات في «أمريكا» وفي ظرف صحي يصعب وصفه تمنيت - وقت إذ امتنعت عن تناول أي نوع من الطعام والشراب - تمنيت كسرة خبز ناشفة من حب «البلسن»العدس البني الصافي - مع قهوة البن أو مع اللبن الحامض بالريحان، وبالمناسبة فإن اسمه في قاموس اللغة بـ«الحقين والحقينة» كما يسميه أهل القرى بالسراة والمهم أقول:

وعندما خرجت بعد زمن من المستشفى للفسحة دخلت حديقة منبسطة بالخضرة العشبية «النجمة» - أيضاً هذا اسمها القاموسي في العربية - فشممت رائحة الطين الواقع بين الجبال في تلك الولاية. لقد عدت آلاف الأميال في فينة زمن لا تقدر بجزء من الثانية إلى رائحة طين القرى والأودية، و لا أظن أن المسألة مرتبطة بي أو بفلان من البشر بل بكل الناس في كل المناطق ليس في أمر كهذا فقط.. بل في اللغة ولهجاتها وأنواع الملابس والروائح والالوان وكل ما يخاطب الحواس.. يقول العلماء إن الإنسان في لحظة خطرة مباغتة.. يصرخ منفعلاً بلغته التي تعلمها في بيئة وطفولته، ولحادثة تحدث في عمر كبير وفي منطقة بعيدة جداً وغريبة اللغة والحياة عن بلده.

في الحياة الاستهلاكية المدينية التي نعيشها في هذا المرحلة ببلدنا.. أصبحت الخصوصيات في طريقها المختصر السريع نحو الإلغاء والاستبدال المدني الشكلي المستعين في تفاصيل استهلاكاته على عالميه الاستيراد الورقي الخفيف - قبل العولمة - التي أخذناها في عالمنا النامي من بابها الضيق - قبل وصولها.

من ملايين الاشياء الشكلية ومن الزهور - اللازهور - المؤطرة خلف زجاج محلات بيع الزهور حيث تردنا من كل بلدان العالم وبصور وهيئات لا تمت إلى بلدنا بصلة ومنها نبته خضراء يانعة وغضة لها زهور بيضاء نقية اسمها «جاردينيا»، في إحدى الظروف العلاجية التنويمية بمدينة «جدة» صحوت على هذه النبتة المزهرة من صديقة ما.. لكنها مع الأيام القليلة وبعدم عناية.. تحولت إلى ضمور قليل يشبه التثاؤب.. فكان منه عنوان المجموعة الأخيرة التي تدور أجواؤها في المستشفى وليس في القرية.. فكان عنوانها «جارينيا تتثاءب في النافذة».

في شأن الذائقة القروية والمدنية فالذائقة هي واحدة.. لا يمكن تجزئتها أو تقطيعها إلى مناسبات وأحوال.. إنها لا تأتي حسب ذائقيات يرغبها الآخرون مثلاً، لأن لكل بيئة ومجتمع خصوصية منشأة وذائقته التربوية التي عاشها في حضن ثقافة الموقع الأول.

كنت في الطفولة مفتونا بالنجوم وبعدها وكنت أحلم بنجم أخضر مضيء.. لم تكن الكهرباء قد وردت القرية.. فكنا نراها آنذاك عبر مسافة بعيدة في الليل - بعد صلاة المغرب - نراها في قرية مركزية أخرى، وكان من بين الأنوار نور أخضر جميل يقتحم العين والقلب.. بالطبع لا أعرف مصدره الحقيقي ولا سببه.. لكنني أعلم أن الضوء الهامس البعيد لا يظهر إلا بعد انفصال النهار عن بداية الليل.. لو سألتني لماذا أحببت اللون الأخضر ؟ لما استطعت الجواب لاسباب أقلها انني كبرت وكبر معي وربما إلى النهاية !.

الذائقة الفنية أيضاً - ومع علاقتها بالثقافة - لا يمكن فصلها عن زمن الطفولة والنشأة.

(٦) – بديهي أن الكتابة الواعية التي تقصد موضوعها المكتمل كالمناخ الاجتماعي في المجتمعات القروية مثلاً لا يمكن أن تحيط بكل عناصره وتفاصيله المهمة وأنها في أحسن حالاتها ستتشكل من عناصر انتقائية يتم إعادة بنائها من منظور رؤية الكاتب.

وفي رواياتك وقصصك عن القرية لم تتطرق للعلاقات العاطفية أو حالات الحب والعشق الحارق الذي يتأجج في أحشاء كل تجمع بشري ولا سيما في القرى التي تتداخل حياتها بالطبيعة وبالأحلام العاشقة. فما تفسيرك لذلك ؟

ومن جهة أخرى فكما عشنا في المجتمع القروي رأينا أن ثقافته تعبر عن مذخور الثقافة الشفاهية والتي لم تكن تتحرج في الحديث اليومي عن استخدام المثل المسكوك والقصة العابرة التي تتعامل مع مفردات الجسد الأنثوي والرجولي وبطريقة عادية وصريحة عن كل مستوياته، فهل تعمدت إغفال تلك الخاصية الأسلوبية أم أنك تدخرها للمستقبل ؟

• سأبدي لك ما كنت تجهله فأنا لا أصنع هيكلة تفصيلية للرواية قبل كتابتها وإنما أحدد إطاراً أكتب في حدوده ولا أقول «أفقه» ينسج البناء الروائي، وعادة ما أكون قد اعتمدت على رموز إيحائية كالمثل أو الحكمة الشيخية أو المسمى أو الذكرى المرتبطة دون تأثر مباشر بالذات وإنما بالمخزون الاجتماعي وما ألم به من ثقافات حكائية مروية ممن سبقوا زمن المعايشة، هذا ليس نفياً للذات وإنما لاستراتيجية مرجعية اجتماعية كتابية بمنظوري العصري.

إن كثيراً جداً من الحقائق التي تحتاج إلى تفاصيل وتوظيفات لم انظر لها في كتاباتي – قصة أو رواية – وذلك لأن هذا غير ممكن على

الصعيد الإبداعي الكتابي الذي أعوم فيه وإلا لكنت كاتباً منوعاً كـ«الجاحظ» مثلاً و لوضعت كل شأن في كتاب وهكذا.

الكتابة في خصوصيات المجتمعات «إبداعاً» هي من أصعب الكتابات - في نظري - لأنك تحتاج إلى الموازنة بين انتقائيتك لزاوية الإلتقاط وبين الحرص على حقيقية الانتمائية الخاصة، وكان بداخلي رغبة كبرى في اعتبار الزمن المرحلي هو خط سفري في الكتابة عن هذه المكاتبة الاجتماعية تحديداً.. لكنني اكتشفت أنني لست كاتباً تاريخياً لذلك وجبت علي الانتقائية فأنا محدود بزمن يتحدد فيه العمر والقدرات الذاتية والموانع المؤسساتية والاجتماعية التقليدية وأمور أخرى. أنت تعلم أن الروائي يحمل كشفاً وتفصيلاً.. لكنك لا تستطيع أن تنفصل عنه - بأي حال - رؤيتك الخاصة وإدارتك لبناء عملك الروائي في إمكانية الواقع الذي لا يمكن تزويره ولا صبغه بما ترغب.. نعم..

لقد سألني أحد القراء هذا السؤال تحديداً:

- أين عاطفة الحب والعشق في رواياتك ؟

لا أجد جواباً شافياً وربما كان هذا عيباً في أعمالي القصصية والروائية عن القرية الجنوبية.. رأيت أن المزارع الذي يخبط في طرف الخبزة ليزيح رماد «الملة» عنها.. ويسرح بعد صلاة الفجر إلى الوادي ولا يعود إلا بقدمين مبلولتين بالطين ثم يتعشى ما قسم له لينام منهكاً.. لا وقت عنده للحب والمغازلة.. بالطبع حبه وهبه لزوجته وعائلته وأرضه.. أو ربما هكذا كان نفسياً.

• كأنك بهذا تجرد القروى من عاطفة الحب و ما نعرفه من قصص العشق وما نحفظه من قصائد الغزل ولعل الذي يذكر أو يطلع على

ما دون من شعر شعبي ل «أحمد بن جبران» و«أبو سحاب» مثلاً سيرى مرموز الحب وصريح عباراته في كل ما قالوه !

– واستطرد عبدالعزيز: ربما كان ذلك صحيحاً ولكنني أتحدث عن الغالبيةً من الناس غير الشعراء ويمكنني القول أيضاً بأن هذا لا يعفيني من اعتبار هذه المسألة موجودة في كل إنسان وكل المجتمعات.. فلو نظرنا لفصل في «البئر» في رواية «الوسمية» لوجدت أن سبب رمي المرأة لنفسها في البئر.. كان بسبب علاقة – عاطفية – غير مشروعة وفي وقتها..

وأنت تعلم أن مجتمعنا محافظ ونحن نحترم هذه المحافظة !

إن هذا سيسبب إشكالية في مفهوم القارئ القروي والشعبي عموماً.. وقد جاء لي رد الفعل القاسي تجاه فصل في رواية «الوسمية» بعنوان «أحمد يتعلم أشياء جديدة» باعتباره فصلاً غير ملائم أو شبه ذلك.. و في مجموعة قصص «أسفار السروي» بقيت ولم يعلم أحد زمناً أعاني فيه الإحباط من أحد القراء.. اسمه «ابن السروي «ظاناً أنني قد تعمدت إسباغ صفات كل أهل جبال «السراة» في شخصيته والتشهير به.

الأسماء الموجودة في أعمالي هي أسماء تقريبية لا لشخوص الأعمال بالطبع .. أحرص على أن تكون من واقع البيئة لكنها بعيدة عن الحدث بذاته أو شخصية بعينها.. تصور كم من صالحة بنت أحمد ستسأل عن رواية «صالحة» وكم من «أبو جمعان» وكم من «مليحة» و«عزيزة» و«عطرة» وغيرهم.. نحن في واقع اجتماعي شديد المحافظة إلى درجة كبيرة وأنا أحمل على عاتقي قلماً وليس بندقية.

(٧) – ما سر ولعك بالمرأة وغنى وتعدد علاقاتك بها في حاضرك حتى لتعد من ذوي الثروة في هذه العلاقات(ثقافية / صداقية / عاطفية) مع المرأة سواء من داخل المملكة أو خارجها ؟

أيعود ذلك إلى فقر العلاقات العاطفية أو انعدامها في صباك في القرية أو يعود إلى حالات العشق والتوله التي تصيب الرجل بعد الأربعين؟

• يا سيدي.. مع أن صيغة سؤالك قد تكون مستفزة وخاصة، و ربما لا تفيد أو تضر أو تهم أحداً، لكن دعني أسأل متى قد تراني قد نظرت إلى المرأة (النساء) كقناص يوجه سهام قوسه العربي القديم إليهن ليحظى بأكبر عدد ممكن من الغزلان والظباء.. لا يلبث أن يهبهن للسكن والنار والافتراس!

هل المرأة صيدة أو مسلاة أو مركز لذة اقتناصية ؟ دعنا.. تقول «عاطفية» لكن وفي مجتمع قام على مفاهيم معينة تجاه المرأة.. حيث ينشأ المجتمع بكليته راكضاً خلفها في تستر ومن خلف خباء شديد الكثافة.. إنه يعتقد أن سبب شوقه العاطفي الجسدي يكمن فيها وهذا خطأ بالطبع.. فالسبب موجود في مفهوم التربية غير المتوازن.. فقدان التوازن العاطفي هو السبب في دواخل الناس.

عندما نشأنا في عالم قروي واضح الملامح لم نكن نعرف معنى الحرمان العاطفي ولا نظرنا للمرأة بعين الافتراس الجسدي.. لم نعرف الواقع غير المنصف إلا بعد أن كبرنا وغادرنا قرانا.. بعد أن اندثرت معالم الخصائص القروية.. لقد كنا بالبديهة نحيا حياة حضارية القيم وليس (الوصاية).. الناس وقتها كلهم يعملون ويشتركون في جهد الحياة وألمها وفرحتها.. المرأة لم تكن كائناً غريباً وبعيداً عن التعامل والمكاشفة المعيشية اليومية.. لم يأكل الرجل المرأة ولا حدث

العكس.. كان الإنسان القروي كاملاً لا تجزئة ولا انفصال ولا تربص أو مفارقة. جاءت «المدينة» البعيدة عما يسمونه خطأً بـ«الحضارة»، فالقيم الإنسانية التي تشكل دواخل الناس وبالتالي سلوكهم بعيدة عن المفهوم الحضاري.. نعيش ونتحرك والغربة تسكن دواخلنا كنفق العتمة المعبأ بالظلام والخوف والتردد.

أن الأمر لا يقتصر على الرجل فقط فالمرأة أيضاً تعاني وبشدة من الغربة والغربة العاطفية ثم تصبح زوجة دون معرفة أو اختيار ثم أماً محتضنة فمربية هذا إن تم لها التواؤم الزوجي.

لم أكن أعاني في صباي عاطفياً (من يقرأ «المكاشفات» يجد الجواب) ولا أدري إن كان للصدفة التي لم أجد خلفها دورا في المسألة بعد الأربعين ولو أفترضناه.. فهو التعقل والمفهوم العميق لإنسانيتها ودورها الحياتي - الضروري الطبيعي - العظيم.

كثيراً ما نتخفى خلف العورات ليس أمام الآخرين فقط وإنما لعدم مواجهة أنفسنا لكي لا نتواجه مع قيمنا التي أملتها علينا ثقافاتنا وذلك في نظرتنا وعلاقتنا بالمرأة.. فالترسبات المتراكمة في داخل الإنسان تبقى تنزعه من إنضباطاته وتوازنه بصورة حادة.. لكنها لا تكون فالتة بحيث تصبح على نفقة الآخرين في سبيل غنيمة الذات.. ذلك يعود للدوافع الاجتماعية التي نشأت عليها تلك الترسبات.. والحقيقة (التي أراها) أنه لا خيانة للذات بالمفهوم الثقافي الإنساني وبالذات في مسائل العواطف التي تتحول بصورة أو أخرى إلى الغراميات أو العشق وهذا لا يحدث إلا نادراً لكنك حين تدخل في هدأة الحوار الذاتي الخفي.. لا تجد الأمر اختيارياً بحتاً.. العشق لا يصلح لأن تزنه دوماً بالعقل والحساب الرياضي وإذا ما فعلت فقد

تساهم في قتل أجمل مساحة في حياة وساحة قلبك.

دعني..

فأنا لا أحب أن يوصف وجه الحبيب بالقمر أو الشمس أو حتى الشمعة ولا أن يكون الحبيب مصدراً للسهر والهيام والعذاب فهذا لا يختلف كثيراً عن طريقة حفر القلب أو رسمه بالطبشور كنصف تفاحة مفرغة يخترقها سهم !!

(٨) – هناك تجربة حب رائعة ومعقدة تجلت في روايتك «في عشق حتى» التي تعد واحدة من الروايات المتميزة محلياً وعربياً، وسؤالنا يتجاوز الرواية إلى بطلة الرواية.. حول ما الذي يميز هذه البطلة لتأخذ موقعها الحارق في الرواية(هل هو الجمال / الثقافة / الحنان/ الشخصية.. إلخ) ولماذا لم تستحضر جزءاً أو بعضاً من تجاربك الوجدانية هنا لتكتب نصها المحلي ؟

• رواية (في عشق «حتى») هي حكاية مختصرة لامرأة عشت ولا أزال – بعيداً – هائماً في عشقها مع تعدد التجارب وأشكالها.. لقد تعذبت بها ولم تتعذب بي لكنني على ما يبدو وقعت فيما قال عنه الكاتب الفيلسوف شو «عندما تجد نفسك في مسار ضد مصلحتك تجاه امرأة ما.. فأعلم أنك تحبها» أنا شخصياً لا أستطيع أن أحيا بلا امرأة – حبيبة – تحديدا ولم أسأل ذاتي إن كان هذا مطلب خاطئ أو مصيب.. لا اتخذها كملهمة.. ولا أوظفها كتابياً بالضرورة.. لكنها حاجة ضرورية إنسانية ودافع حي جميل للإبداع والحياة.. قد تظنون أنني رجل بشوارب وعقلانية لكنني لا أنبذ عني صفة الجنون.. وأقل ما فيها العاطفية المحرقة والبساطة والألفة تجاه كل الناس.. إنني أحزن لقتل بعوضة أو ذباب.. بالرغم من

أذيتهما.. وفي ذات الحال أنا شديد الصعوبة تجاه الحق الذي أؤمن فيه وبه إنني مع الحياة والفرح والأمل، و«حتى» قد لا تكون رواية محددة بكل عواطفها عن «حتى» ذاتها والتي أحيا ما حييت أحبها.. لقد كانت رواية دون قصد مبيت.. تدخل بصورة أو بأخرى في عالم القرية وما يحكمها من.. استشهاداتها.. الخ كانت قروية لأنني استيقنت ذلك من حب صبياني قروي.. إينما أذهب يظل مرجعيتي في الذاكرة: غير أن الوعي الرجولي في سن ما أعتقد أنواعاً أخرى وصياغات أخرى.

«وحتى» كما تعلم كلمة عذبت «الأصمعي» والنحويين لدرجة أن دارساً قضى وقتاً لنيل درجة «الدكتوراه» في «حتى» !.. أنا لا أحب المواقف الانهزامية على ألا تكون على حساب الغير.

(٩) – تميزت شخصيتك في سنوات الطفولة والصبا وحتى السنوات الأولى التي قضيتها معنا في الدمام بالتأمل والأناقة مع ميل للانطواء، ولم تكن ترتاح أو تشارك في الأحاديث التي تخوضها مجموعة كبيرة من الأصدقاء، فاتخذت شخصيتك ملامحها الجادة المبكرة والزاهدة في الآخرين، وفجأة وجدناك تحيل كل شيء إلى سخرية مرة أو هازلة، ثم ما لبث هذا التحول أن تغلغل داخل تكوينك الكتابي واليومي فأفدت منه الكثير في حياتك وأعمالك الكتابية حتى أصبح الحديث معك متعة خاصة يتعشقها الكثيرون والكثيرات.

هل يمكن أن تضع أيدينا على جذور ذلك التحول الهائل في تكوينك من الانطواء إلى الهزل وإلى السخرية وحب الدعابة ؟

• جزاك الله خيراً.. ربما نشأت على أن استمع أكثر مما اعتدت على يد جدي المرحوم.. لكنني أرى أنني ثرثاراً أحياناً وطويل

الحكاية والتفاصيل المملة.. لقد لاحظت هذا في أحايين كثيرة ولم أجد لي - ربما نوعاً من المجاملة أو الاحترام.. لا أدري - !.

ثم لماذا لا يكون صمتي نوعاً من الخجل أو عدم القدرة على المشاركة في أمور لا أرغب الخوض فيها. أما السخرية فأنا لا أسخر من الآخرين بل أحملهم في عمق قلبي.. و..

- يا عبد العزيز.. الله يوفقك ويزوجك واحدة ما تسمع !.. لذلك أرجو أن تجيبني على هذه التفريعات بشأن السخرية المقصودة هنا.. هي روح النكتة والمفارقة والدعابة وليس المقصود بها السخرية من الآخرين، فأنا أعرف أنك تمقتها ولكنني أسألك عن السخرية التي تحول المأساة إلى ملهاة لتستطيع التغلب على قسوتها.

هل كانت النكتة تستهويك وأنت طفل ؟

• أنت تعلم أن الثقافة القروية العامة مشبعة بروح التهكم والمفارقة لكنني كنت استمتع بها كمستمع ولم أكن أشارك آنذاك في إنتاجها.

- هل كنت ترويها للآخرين في طفولتك ؟

• نعم ولكنها لم تكن أحد مشاغلي الرئيسية.

- اذن كيف حدث هذا التحول في تكوين التعبير عن شخصيتك وعن آرائك عبر استخدام آلية السخرية ؟

• ربما اسميه تطوراً وليس تحولاً فالبذور الأولى التي تستمتع بالنكتة والمفارقة موجودة ولكنني بعد أن تزودت ببعض المعرفة ومارست الكتابة وأصبحت لدي اسئلتي المقلقة حيال العالم الخاص والعام وجدتني مدفوعاً لهذه الطريقة التي رأيتها تساعد الإنسان

على التخفيف من المرارة في كافة ظروف الحياة.. ثم أضف إلى ذلك القراءات الهامة التي عشقتها للجاحظ وابي حيان التوحيدي الذي كان يهتم «بالملح» وكذلك في قراءاتي لابن إياس.. هذه القراءات جعلتني أتلمس فعالية الكتابة الساخرة أو المفارقة وقدرتها على التأثير الهائل في القارئ. ولذا يمكن القول بأنني حاولت استخدام هذا الأسلوب - أحياناً - لإيصال الرسالة الفنية لكتاباتي عبر الدعابة التي أتوقع أن يستقبلها القارئ بنفس روح الدعابة والمرح فتقيم بيننا جسوراً من التواصل وقبول بعضننا البعض.

(١٠) – كرست في كل أعمالك العديد من القيم الإنسانية النبيلة التي تتجلى في جوانب من حياة المجتمعات القروية (التعاون، البساطة، الارتباط بالأرض، الوقوف في وجه الظلم) وكان من ضمنها وأهمها انتصارك للمرأة في كل هذه الأعمال، ولكن القرية الآن قد تحولت إلى شبه مدينة في مرتكزاتها الاقتصادية وفي أنماط حياتها الاجتماعية وقد قال والدك الشيخ صالح بن مشري في حوار نشر بجريدة البلاد «لم يعد في كل القرية ديك واحد» كدلالة على عمق التغير الذي طال حياة القرى.. لقد أسدلت الستائر الرمادية الآن على فعل ووجود المرأة الاقتصادي والاجتماعي في القرى كما أسدل على أختها في المدينة فمتى نجد امرأة القرية وزميلتها المدينية في إبداعاتك القادمة ؟

•نعم هذا صحيح فالتحول الاقتصادي الطفراوي في كافة مناطق الوطن «السعودية» قد خلق أنماطاً مغايرة لطبيعتها الإنتاجية - السلوكية - التراثية - وكذلك في العلاقات والروابط وفي شكل الحياة وضد بنيتها المعيشية. لقد اصبحت «البلاد» وهي البقع الزراعية المحدودة والتي عرفت لدى الفلاح بأحلى الأسماء.. فتلك «عيون الحمام» والاخرى «خيره» والثالثة «سعادة» وغيرها

مما أختير كأجمل الأسماء والكنيات باعتبارها وبصورة متوارثة منذ القدم مزارع يبذر فيها «الذرو» ويبقي لينمو ويشد ساقه ثم يثري تحت عين وقلب مالكها الفلاح.. إلى موسم الحصاد.. لقد أصبحت بعد انفراط الإيقاع الإنتاجي - الفلاحة اليوم - مكاناً مناسباً دون أدنى تردد إلى مكان ممهد لبناء بيت من الاسمنت !.

سأذكرك.. هناك وعلى حافة المكان الذي يزرع «العثري» - وهو مصطلح عربي جيد لبقعة الأرض التي تعتمد في مائها على أمطار الموسم سواء كان قمحاً أو ذرة أو غيره.. هذه القطع المعروفة عند الفلاح بمحدودية محصولها.. تقع في العادة إلى جانب سفح صغير غير مزروع لعدم صلاحيته وربما كانت إلى جانب صفح كبير(المساحة المنحدرة نسبياً يسمى بـ«الوسيفة» أو «السفح» بتحويل السين إلى صاد) وقد تكون بلا حدود.. فتكون أكبر مساحة إلى وسط أو قمة الجبل.. باعتبار أن المنطقة جبلية وعلى جنباتها مدرجات متعاقبة للزراعة، فأصبحت اليوم في مكانتها المعنوية والواقعية الإيقاعية الكاسحة.. أغلى قيمة من الأراضي الزراعية «المسقوي» التي تساق بالماء من البئر بالسواني حيث كانت أكثر حصاداً وأينع رواءً!!.

القروي اليوم في هذه المرحلة الاقتصادية المعيشية.. لم يعد بقروي والحياة المصلحية العامة أصبحت فردية انتهازية.. لا مكان للأب أو الابن ولا للأخ والعم وبالتالي لا للجار والجماعة والقرية أو العشيرة والقبيلة، وعليه فإن الوسيلة الإنتاجية التي كانت تصيغ للقرويين نمطاً محترماً ونافعاً بحكم الضرورة المتبادلة وفي مناخ اجتماعي واحد.. قد تغيرت ألا تتغير معها المرأة ؟.

بالطبع ودون إرادة أو تكلف أو عدم تكلف وهذا دليل على عدم صحة النظرة التي تفرق بين المرأة والرجل كإنسانين متكاملين.. لا يمكن أن يحيا أحدهما دون الحاجة إلى الآخر (سنة الله في خلقه).

الوثبات الرهيبة والذهول «الفانتازي» الذي صبغ أنماط الحياة وشخصياتها وانتمائها بألوان مغامرة لم يكن على الرجل دون المرأة ولا على الطفل دون العجوز ولا على القروي دون البدوي أو أهل الساحل أو الحارة في المدينة القديمة.. لقد أصبح وبصورة ترفع وسامات التقدم الإنساني وتعود إلى التخلف الاجتماعي مئات الخطوات بل آلافها إلى الخلف دون وعي بالحياة.. تحولت الإنسانية في المجتمع بشتى صنوف معيشتها إلى تخلف خطير وتاريخي بحيث أصبح الإنسان بلا فاعلية ولا مرجعية ولا مستقبلية.. فقط إنما هو استهلاكي زمني ومعيشي جاهز عديم النشاط يعد أيام عمره الباقية ويصارعه في المعايشة النفسية والجسدية و.. «الله يحسن الخاتمة»!.

الحياة لا تقف عند نمط معيشي معين.. لكن هل علم أهل القرى لماذا ؟ لماذا انتقلنا فجأة بقفزة غير استيعابية من «الثور، والحمارة» إلى الطائرة والسيارة والأوتوماتيك ولم يتم إعدادنا اجتماعياً لهذا الاستيعاب بصورة مرحلية ؟ !.

هذا ما يشغلني ويعذب قلمي.. ليس في القرية فقط.. و إنما في المدينة التي تكونت من حارات ونزل معروفة ومحددة.. إلى مدينة ثلاثة أرباع سكانها من القرى والهجر والبوادي ولا يجمعهم شيء.. الجامع فقط هو ما تملك.

لكن هل هذا المستضاف الاستهلاكي المدني - وليس الحضاري

- استطاع أن يقتلع الادميين من جذورهم ؟

لا.. إن في المدن الكثير ممن سكنوها بعاداتهم وشعبيات مجتمعاتهم وربما حتى شكليتهم أو شكلياتهم في الملابس واللهجات !.

أتسالني عن المرأة الأم والزوجة الأخت والحبيبة وكيف أن الستائر الرمادية أسدلت عليها وعلى أختها في المدينة ؟!.

إن الستائر الآن أصبحت بنية داكنة.. لم يظلمها المولى الكريم ولا الرسالة الإسلامية الحنفية وإنما ظلمناها نحن بمفاهيمنا الجديدة والمتخلفة.. بحيث نظرنا إلى الطير.. إنه يطير بجناح واحد في الفضاء.. لقد فرضت علينا المفاهيم دون حوار ونظرنا إلى المرأة نظرة أخرى.

لقد ولدت - قبل أن أكون كاتباً - مسلماً وتربيت في بيت ومجتمع قروي مسلم وأموت مسلماً انكح مسلماً وأذري مسلماً.. اعيش أحب السلام وأنبذ الاستسلام وقد أوصانا رسولنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم باحترام ومعايشة الأم والأخت وذات القربى والحميلة والجارة وكل المؤمنات.. بالخير والإيمان والرعاية والوصاية الحميدة وكامل التعامل الإنساني.

لقد سئلت عن العنصر الإنساني المغيب في واقعنا وكيف أن هذا يقف كحد واضح المعالم في عدم كتابة الرواية المحلية ؟.. غير أن هذا السبب الحيوي الهام لم يكن مغيباً في رواياتي المكتوبة عن عالم القرية.. المرأة موجودة في حياة الفلاح جنباً إلى جنب في البيت والمزرعة.. ترى من كان يحصد و«يدرس» المحصول ويحضر الماء من البئر ويصنع الخبز ويشارك في «طينة» سقف البيت ويطبخ للمناسبات ويحلب البقرة ويجني الثمار و.. و.. إلخ.. أليست

المرأة بل وتحمل وتنجب - بحكم طبيعتها - وتربي الطفل وتحمله في («الميزب» / المهد) وتأخذه معها إلى المزرعة ثم تلقمه نهدها لينام حتى تتفرغ للعمل.

اعتقد أن غياب المرأة لا يؤثر على الكتابة الروائية تحديداً وإنما هو الغياب الإنساني في الحياة والنهوض بها.. ألم يقل رسول الأمة عليه الصلاة والسلام لابنته «فاطمة» وهو يخاطبها «نعم يا أم أبيك».. أية إنسانية عظيمة هذه.. «خذوا نصف دينكم من هذه الحميراء» يعني «عائشة» رضي الله عنها.. يجب ألا نخلط في حقائق الأشياء.. المرأة هي عين الإنسان الأولى ويده وكليته وأذنه وكل شيء في حياته وليس فقط معاونه الأساسي في الحياة !.

كلنا لم نأت من الفراغ ولا من بطون الرجال.. لذلك أنا لم أخترع المرأة في الرواية التي أكتبها.. لقد كتبت من الواقع.

لا تظن يا مسائلي.. بأنني متعصب أو متغاف بجهالة.. للمرأة في كتاباتي حقيقة وجودها ومعايشتها وقبل كل هذا إنسانيتها لكنني أبتليت بالكتابة القصصية الروائية الكاشفة لحقيقة الواقع الإنساني كما هو.

إنني أكتب بدمي ومشاعري وكياني.. ولم أقل كل ما في الحياة القروية والمدينية بإنصاف، المستقبل آت والناس معلقة في رقبة قلبي ولن أكتب إلا بمفهومي ونظرتي وقناعتي ولست كل الكتاب ولا كل الأقلام.. لكنني شاهد بقدر الامانة الإنسانية في هذا الشأن وغيره.

(١١) - نعرف أن طبيعة التكوين الثقافي لأي مجتمع مرتبطة بطبيعة النشاط الاقتصادي والذي يزاوله أفراده ولذا فإن للبيئة القروية ثقافتها المرتبطة بنشاطها الحياتي، وكما نعلم فإن تلك الثقافة تكرست لمئات

السنين، وحين دخلت المدينة في عجلة التطور المادي والتقني كان لا بد أن يطال التطور/التغير حياة البشر في المدينة والقرية ويؤثر على منظومة الأفكار والقيم لينتقل المجتمع من تشكيلة اجتماعية/ اقتصادية إلى أخرى أو هكذا لا بد أن تمضي الأمور.

سؤالنا هو: لماذا يبدي الكثيرون من أبطال أعمالك موقفاً مضاداً للأخذ بأسباب التطور(الموقف من «ماطور» الماء الذي قتل صاحبه، صالحة ترفض هدم منزلها رغم التعويض من أجل إيصال الاسفلت للقرية، السخرية من «سلام» راكب السيارة «الونيت» على الجالسين أمام منازلهم بزمار السيارة).. إلخ.

هل كل ما قامت عليه القرية من عادات وقيم يمثل الخير كله بحيث تقف المدينة «كمرموز» شقي ضده ؟

وهل يفسر هذا إغفالك أو عم اشتغالك إلى الآن عل عالم المدينة في سردياتك ؟

• نعم التكوين الثقافي الاجتماعي المرتبط بوسيلة الانتاج (نستثني الحرفة) لأنها لا تشكل صيغة اجتماعية ذات ملامح ملتحمة بأداة الإنتاج في القرى.. كأن نرى «الجزار» الصانع وغيرهم وهم في العادة يكونون تحت إدارة أب العائلة ولا يملكون في العادة أراض زراعية بحيث يستطيعون العيش منها، لذلك فهم مرتبطون بثقافة القرية من نافذة الالتئام الاجتماعي، أقول هذا باعتبار أن أهل القرى مثلهم مثل كل المجتمعات الإنسانية في المعمورة.. ليسوا ملائكة ولا يجوز الأخذ بخيرهم دون أخطائهم.. لكنهم في مفهومي من أفضل القلائد الاجتماعية التي تحافظ على منظومة كبيرة وحضارية في قوانينها وعاداتها وتماسكها.. مما نحتاج إليه في عدد من فروع

العدل والتعامل فعندما نرى كيفية توزيع مياه العيون ومسايل المياه في مواسمها أو مقاطعة من شذ عن الاحتكام للجماعة - وهذا صعب جداً - أو طريقة توزيع لحم الماشية - سواء كانت للبيع أو لما يسمونه بـ«الصدقة» حيث ينال الكل حسب البيوت والعائلات قطعة من كل عنصر ولحمة من الذبيحة بما فيها أطراف البهيمة وكرشها.. وعندما يكون هناك حاجة لمساعدة الجماعة في أي شأن لـ«طينة البيت» أو وقوع أمر مشين على أحد منهم أو وقوع أحد المواشي في البئر أو تجميع مقدار من كل فرد في وقت الحصاد وبذله للفقير وعادة ما يكون لمن لا أرض زراعية كافية لمعيشته.. أو لا يملكها البتة كالحرفي وعندما بدأت معطيات الحضارة الآلية كالسيارة وموتور الماء وغيره.. لم يكونوا ضدها فهم بيد واحدة يشقون طريقاً للسيارة لكي ترد القرية (الوسمية) ويتناقلون مضخة الماء ايجاراً أو مساهمة «صالحة».

المسالة لا تعني أنهم ضد المعطيات الجديدة.. إنما هم فقط يجهلون التعامل معها وفي الغالب عدم قدرة على امتلاكها فأنت ترى في رواية «الوسمية» كيف أن «أحمد بن صالح» كان يهون عليه أي أمر صعب.. سوى أن يمر طريق السيارة الذي يمهده كل الجماعة للوصول إلى عمق القرية من أرضه الزراعية.. لكنه في آخر الأمر وافق بعد أن رأى أن الخير للجميع وأن رأيه شاذ ولو أن موافقته على المرور من أرضه الزراعية سيعتمد عليها موافقة آخرين قادمين في امتداد الخط.

إنهم صعبون في التنازل عما ثقفوه في بيئتهم خاصة ما يتعلق بمواطن معيشتهم.. مضخة الماء التي تنزع الماء من عمق البئر تعمل بـ«البانزين» وتنفث غيوماً في داخل البئر العميقة من الكربون وعادة

ما تكون هذه «الماكينة» قريبة من موقع الماء.. حافته في القاع فكان النازل، بالسلالم الحبالية إليها لإسكاتها بعد عملها، كثيراً ما يتعرض لكمية الدخان وبالتالي الاختناق فالموت.. كانوا يخافونها.. وبالتالي توالد الكره لها.. القروي والإنسان الذي لم يتعرض لأي تلوث.. يصاب بالدوار والغثيان أثناء اضطراره للتعامل معه.. لعلك تتذكر كيف كنا نتأثر لمجرد ركوبنا السيارات وهي قليلة جداً في ورودها للقرية.

قبلاً وفي المعنى السابق لحرص الفلاح على بقرته ومزرعته.. فليس غريباً أن تكون «صالحة» في آخر الرواية «صالحة».. شديدة التمسك والإصرار على عدم هدم بيتها «الحجر طيني» لقضية طريق «الإسفلت» برغم التعويض المالي الذي ستناله !.

موقف هذه المرأة – مع معرفة شخصها قبل نهاية الرواية –.. هو موقف إنساني تلقائي حميمي معيشي تاريخي أولاً ؟ وليس موقفا ضديا من حداثة التطورات وإلا لقالت يبقى ولدي بقربي ولا يذهب إلى المدرسة ليعمل، وهي أشد حاجة له وهي لا تؤاخذ في هذه الحالة لأنها محصلة ظروف اجتماعية اقتصادية وثقافية معيشيه يومية ضمن حياة القرية.. وهي لا يمكن أن تنظر إلى التعويض المالي مقابل ثقافتها الاجتماعية القروية المعيشية والحميمية في البيت الذي آواها زوجها معها قبل وفاته.. لايجب أن ننظر إلى البيت كمجموعة مترابطة من الحجر والطين.. بل كملجأ ومسكن إنساني له جدران وباب تستطيع أن تأمن إليه وتقفله على نفسها وفرخها. سيكولوجياً وتاريخياً وتربية متوارثة طويلة.. قامت على نظم العلاقة التلقائية بين الإنسان وأنسنة الأشياء التي يمنحها جمالية ألفته وحميميته ولا نستطيع أن نعتبر الحجر والطين وصخور الجبال واختلاف الشجر

بأنواع شوكه و.. و.. إلخ لا نستطيع أن نعتبرها خارج ضلوعه وحناياها الدافئة.

أنا لا اعتقد أن المسألة «مادية» كما تفضلت في سؤالك – اقتصادية – بحتة بقدر ما هي ارتباط حميمي نفسي متراكم.. لعلك تعلم أنهم يعيبون جداً على من يفكر في بيع أراضيه الزراعية.. أعني شيئاً منها.

أذكر وأنا طفل – بحكم الواقع المعاش – أن المرحوم جدي عيرني بكلام جارح – لا أنساه – حين طلبت بإلحاح وبكاء حبتين من التمر – بالطبع ليس هناك شيٌ حلوٌ لإرضاء الأطفال سواه – قال رادعاً – لعدم وفرتها:

«أخاف بكرة.. إذا كبرت تبيع البلاد من أجل تمرة». لاحظ أمر الطفل وقتها لم يستوعب القول.. لكنني أذكرها اليوم للمرة الأولى وبكامل الوعي.

الدم والرقبة تمنح مسافة شبر واحد بين جارين في الأرض الزراعية وهذه الاستعدادية متأهبة جماعياً ضد أي طارئ على القرية ككل.

عن جوابي الاستراتيجي الكتابي في مسالة وقوفي فيما سبق وكتبت عند منطقة الرفض للجديد عندهم أو كما يبدو في سؤالكم.. فإن قلمي وقف – تقريباً – في نقطة مهمة وخطيرة تجاه هذا العالم الذي احتاج لسفر طويل من السنين حتى أعطيه بعض حقه الكتابي مما أحمل وافهم عنه.. تلك مرحلة أو نقطة «القبض على القرص» التمثال الإغريقي القديم فبعد أن التقطته في يدي ودخلت في مرحلة التهيئة لقذفه فعلي أن أرصد هذه المرحلة تحديداً وهي مرحلة الوقوع القروي في منطقة التحول – اللااستيعابي – الذي

جعلهم يثبون دون تدرج مرحلي من الزراعة كنمط إنتاجي معرفي متراكم.. إلى منطقة المفاجآت الاقتصادية المغرية والتي لا خيار دونها ولا معنى فيها لأي أمر له ارتباط بالواقع المتوارث البتة، لأنها أتت فمحت خصوصية السحنة الاجتماعية دون استيعاب أو حتى ذكرى أو تقدير لما مضى.

ليس أمام ذلك الإنسان وربما ليس أمامي – ككاتب – استقراءً لوجه معلوم ويمكن السعي نحوه مستقبلاً بحيث نحس بالانتمائية الاجتماعية.. إنه منزلق خطير وذو هم كتابي استراتيجي كبير في هذا الشأن.

(١٢) – تقوم التقنية الكتابية لمعظم أعمالك السردية على دور الكاتب العليم بكل شيء فتحاول إخفاء شخصيتك ككاتب لتعطي الإنطباع بالحيادية لكننا كقراء نستطيع أن نبصر دهاءك الفني ونراك في هذه الشخصية أو تلك.. لماذا اخترت هذا الأسلوب ولم تجعل بطل النص راوياً إلا في بعض أجزاء الغيوم ومنابت الشجر»؟

وفي «ريح الكادي» التي تعد من أعمالك المتميزة يبرز الصراع الدرامي في القرية بين ثلاثة أجيال تتعرض حياتهم لعملية التغيير.. ترى لماذا نراك تختفي خلف الشايب «عطية» وأي دلالة عميقة تود أن تطرحها بهدوء من خلال ذلك الموقف؟

• لا أعرف كيف يقرأ القارئ أعمالي لكنني أواجه بمثل هذا السؤال وغالباً ما يكون عن شخصية الكاتب وأين هو طفلاً وصبياً ورجلاً ؟!

إن مسألة البطل الفرد لا تحظى باهتمامي ولا عنايتي في كتاباتي عموماً، ثم إن الكاتب هنا هو جزء من كيانات متآلفة وتحمل صفات

المجتمعات البشرية في خيرها وشرها والكاتب يتفاعل مع شخصية أولى وشخصية ثانية وهكذا.. غير أن شخصية الكاتب لا تدير النسيج السردي حسبماً تريد مما لا يتعامل مع الواقع أو يجعل الشخوص أبواقاً مدجنة تنفخ بما يملؤها به الكاتب..لقد حاذرت دائماً على ألا تأتي هذه الشخصية - الكتابية - كأنا مثقفة تدير من أعلى الجبل الناس والبهائم والأشياء المؤنسنة حسب رغبتها أو ميولها الشخصية المزاجية.. لا شك أبداً ودون أدنى التبريرات أن الكاتب لا يكتب خارج وعيه وبالتالي فإنه قد يكون في مناطق الصيد و الإلتقاط، وليس بالضرورة أن يكون مجمعاً في شخص بعينه في النص.

أما عن «عطية» أو «عاطي».. فقد كان يحتل الرمز القروي في كتاباتي القصصية الأولى وما لبث الكاتب أن أكتشف أن هذا الرمز يمكن أن يتوفر في أغلب الشخصيات المُعَانيَة الوفية الكاملة بكل صدقها العفوي مع عالمها ومعايشتها له ودون أن يكون ثمة ميزة محددة، وهذا هو الغالب وإلا فكيف تأتي برواية تحشد فيها كل أهل القرية.. أنت في حالة شبه انتقائية لعدد من الشخصيات المتوافقة مع درامية العمل ومتناغمة حسب الضرورة مع «بانوراما» ذلك العالم الذي تكتب عنه في إطار خصوصيته الاجتماعية و المكانية.

** ** **

كان الوقت يجلدنا والكلام يأخذ منا مآخذ المجابهة منتصف الليل وقلت: يا عبد العزيز سأذكرك بطرفة من طرائف الحوادث التي تحدث في القرى: روى آباؤنا أن مجموعة منهم ذهبت إلى قرية أخرى لتطلب منهم المساعدة في جمع «دية» شخص غريب قتل خطأ في نواحيها، وحين التقوا بشيخ تلك القرية وبعض وجهائها

لاحظوا عدم حماسهم للمساهمة، فقام أحد أفراد المجموعة وحلف على أهل القرية الأخرى بأن يخرجوا إلى ساحة الدار للتشاور في أمرهم،(لأن التشاور سينبثق عنه شيء وإن كان قليلاً، كمساهمة مالية من قيمة الدية المطلوبة وقد نجحت الفكرة) !.

الوقت الآن منتصف الليل يا عبد العزيز ألا تأكل ؟

قال: لم آكل ولن.. فهذه اعتبرها فترات مائية.. أنا آكل الماء فقط ! قلت له وقد بلغ العناء مني ومن بعض الأصدقاء المرافقين مبلغه: حلفت عليك أن تتشاور مع «أخوك» أحمد في أمرنا !

تشاورا همساً.. وخرج أحمد من صالة اللقاء وأخذتنا الأحاديث الجانبية ثم عاد أحمد بإبريق الشاي وبعدد من السندويتشات.

قلت لأحمد: كنت اختلس السمع لثغاء الشاة أو التيس تحت حد السكين ؟ فضحك أحمد وقال الله يرحم أيامها، قال زميلي: نحن نعذركم فإذا لم يتوفر الخروف فليس أقل من «ديك الشيبة» الذي تحدث عنه «الصاحب» في رواية الحصون.

أجابه أحمد: أنت في جدة يا صاحبي ولست في قرى الجبال.

تشاوروا فينا يا عبدا لعزيز !!

ضحك وقال لقد بلغت المشورة سندويتش الجبنة.. فهنيئاً مريئاً ما تأكلون !

(١٣) – للأمكنة كمين كما تقول فوزية أبو خالد، وهذه الأمكنة تتغلغل فينا حباً وكرهاً..شجناً وأسى، وأنت قد تنقلت من قريتك في منطقة الباحة إلى الدمام وأقمت بها لسنوات طويلة ورحلت إلى القاهرة وقضيت أوقاتٍ متباعدة في الرياض ثم استقر بك ريح «الجاردينيا» في جدة.

حدثنا عن رائحة المدن وعن المناخ الذي اندمجت به اختياراً أو قسراً وما هو انطباعك الثقافي والاجتماعي عن هذه الأمكنة.

• المكان كما تقول الشاعرة «فوزية أبو خالد» كمين.. لكنه ليس كمين يبث في الداخل رائحته وإنما يترك أيضاً نوعاً من الحوار يخاطب فيها جميع جوارح الإنسان.

لو افترضنا تجريد المكان من هذه الخاصية الإنسانية الكبيرة والمنظومة من عدة تراكيب دقيقة وجزئيات.. فإنه لن يختلف عن أي موقع للحياة أو المصادفة.. بحراً أو صحراء أو صندوقاً من الخشب لا مكان له.. ستصبح الحالة أشبه بزمن «مكتسب» ففيه عمر يقضى بأية صورة بلا حس حتى تنتهي.

قد لا أتحدث هنا عن إيجابية المكان - كمحور ارتكازي - في العمل الإبداعي بقدر ما أعنى منطقية ضرورية في حياة الإنسان برغم الرضى والمصالحة معه من عدمها.

عندما كنت أعيش في القرية إلى سن أول العشرين.. لم أكن لأعرف العالم بمحيطاته وأناسه واختلاطات إيقاعاته وسهوله وجباله.. سوى بحدود طلوع الشمس من مشرقها خلف الجبل الكبير المقابل للبيت من بعيد، وللحصن القديم الذي تلتف حوله برتقاله الشمس النحاسية في الغروب.. هذه حدودي التي التقطت في تفاصيلها عالمي الأليف والحبيب والشقي أيضاً بآلامه وحرمانه، لكنه كان حميمياً ومتغلغلاً في انسجتي وخلايا ذاكرتي وجوارحي.. للحجر - مثلاً - معنى واحد ملتصق بقساوته وصخريته الصلبة وهندسته ووزنه الذي يعني لك تفصيله شبه مدركة الثقل والنوع واللون، لكنه يبقى صخراً في ثنايا ذاكرتك أينما ذهبت ما لم تضف

إلى معرفتك معارف إضافية جديدة.. تختلف باختلاف درجات استيعابها ومكانها وزمانها.

دخلت المدينة فرأيت الصخر غير الصخر والحجر يأخذ خاماً آخر تعرف مكوناته ولا تعرف حميميته المجهولة التي ارتبطت بها في ثقافتك القروية الأولى.. رأيت حجراً يستخدم للبناء من الأسمنت والرمل المقولب ومساكن تقام في عز الصحاري والبحار.. دفعة واحدة انتقلت من آخر حدود الجنوب الغربي إلى آخر حدود الشمال الشرقي.. من الجبل إلى البحر ومن الوديان إلى الصحاري بالطبع كان عليك أن تتعايش مع بيئات جديدة.. كذلك مهما جاهدت في تلوين وتغيير الحجارة.. لن تستطيع أن تغير ما في داخلي.. لقد أخذت الصخر الذي تقطع منه الحجارة في النشأة الأولى معنى محدداً تلمسه وتحسه بكامل قنواتك المعرفية ولكنك تكتشف أن الحجارة ليست سواء.. هذا صحيح تجاه كل الجوانب الحياتية الأخرى التي تقابل الشخص باختلاف المكان، وفي مدينة «الدمام» على بحر الخليج العربي بشمال شرق المملكة.. كنا نبحث عن شكل الصخر أو الجبل أو الحجر.. يقولون ثمة جبل في المنطقة الشرقية اسمه «جبل الظهران» وسمعنا عنه من آبائنا الذين التحقوا عمالاً أميين بشركة الزيت.. منذ قبل مجيئنا للحياة رأينا حيزاً صخرياً تشقه عدة طرقات للسيارات ثم ما لبث بعد أن التصقنا به.. أن انطمس.. فُتك به حتى سُوي به الارض.. فكنا في مواسم الصيوف نقطع آلاف الأميال بالسيارة إلى الجنوب وأول ما يبهجنا نحو الجنوب منظر الجبال وأشجار الطلح و«القرض» والسدر ورائحة الفضاء الواسع النقي.

بالطبع أنا لا أعني أن الأمكنة يجب أن تساير مطالبي.. لكنني

وجدت قلمي يسعى لإعادة تراكيب الأشياء بحكم مرجعية ذائقية ودون الوعي بهندسة الأمكنة الجديدة وملابسات ضرورياتها وبيئات أنسانها. في «القاهرة» حيث البعد الشديد اجتماعياً وبيئة ومعيشة وفي عمق الليالي الموغلة في الغربة ولأسباب غير اختيارية.. كتبت رواية «الوسمية» بحميمية ومرجعية معيشية دقيقة لكنه يبقى المكان «القاهرة» كمين آخر له مواصفاته ونماء ثقافته وأناسه و.. إلخ.

في «لندن» الضبابية.. عرفت طعماً آخر للضباب الذي عرفته في الجبال السروية وبطبيعة الحال والمكان والزمان.. رأيت ضباباً يعايش الإنسان ويختلط بيئته وشارعه ومكان عمله وملبسه ومأكله ومشربه وكان الضباب يعني لي دائماً - يعود للمرجعية البيئة القروية - وجود البرد والعواصف والمطر وانتظار تصريح الأهل بعدم الذهاب إلى المدرسة.. جميل هذا وقبيح في مكانه وزمانه البعيدين.. فقد اتخذ لغة أخرى وسلوكاً آخر.. بمعنى صورة وذائقة أخرى وبقيت له صفة المكان لكل معانيه وأشكاله.. وهكذا.

وفي ولاية «فلوريدا بأمريكا».. عشت أياماً بالغة القسوة ألقيت بكل حديث حضاري عن أمريكا.. هناك خلف سواحل الأطلسي لقد رأيت الخضرة والجبال كأنما صنعها الإنسان بمادة بلاستيكية لكنه لم يستطيع أو لم يفكر في تغيير رائحة الطين الذي كنت أنزل إليه في الحدائق كعصفور ينحت بمنقاره بحثاً عن ألفة عظيمة مفقودة.

ما لمسته هنا أو هناك تجاه الأمكنة.. لا يعتمد عليه كقانون، فهذا قانوني أنا أو تلقائيتي الشخصية مرتبطة بحالتي وظروفي وذائقتي وإنسانيتي.. لكنني لا أستطيع أن أجعل من المكان رداءاً أخلعه متى شئت وكيفما أتفق.

هل المكان هو الجغرافيا أم أنه شيء آخر ؟

بالطبع يا صديقي.. المكان ليس مجرداً عن التقائك في الحياة المعاشية أو النفسية مع الآخرين.. المكان يتأنسن بعلاقتك مع الإنسان الذي يشغل ويغير ويؤثر في هذا المكان.

لذلك تأخذ الأمكنة حميمية الإلتصاق بالنفس والذائقة والذاكرة.

لم أفكر ذات لحظة في العيش خارج مدينة «الدمام» فقد ألفتها إلى درجة العشق.. احببتها حباً إنسانياً تفصيلياً.. فيها تعرفت على الأصدقاء..على الانفتاح نحو ثقافة جديدة.. الثقافة المعرفية بالذات وصياغات التعامل الذاتي مع الحياة والأشياء.. المعرفة الحقيقية لمعنى التجربة الانتقالية من براءة القرية إلى ترس الطاحون المدني.. كنت أمام امتحان يومي في كفاءة الذات وفي كيفية التعامل مع العالم القريب والبعيد.. مع الغذاء والماء ونوع الخبز ومعايشة الدواء، وإقامة سلوك جديد مع وسيلة جديدة اسمها «قيادة السيارة» والعمل اليومي حسب اشتراطات الوظيفة.. لم أكن اعتمد على جرس الساعة ولم أخل بالتزام مع الآخر.. كنت دقيق الالتزام وفي مرحلة عنفوانية فكراً وممارسة ولم تكن مآسي الحياة مرة كما هي كسباً ثقافياً ودروساً.

فجأة أخذتني أقدار الصحة إلى «الرياض».. فكنت أهرب من المستشفى في السابعة مساءاً لكي أعود إلى بيتي في مدينة «الدمام» اقضي نصف الوقت في الطريق (٣-٤) ساعات وأعود إلى غرفتي بالمستشفى قبل السابعة صباحاً..لا تقل إنني كنت مجنوناً.. لقد كان هذا يحدث وفي حالة إغماء فالظرف الصحي كان صعباً. عرض

عليٍ الأصدقاء بـ«الرياض» رعاية صحية وعملاً ملائماً بالصحافة مثلاً ومسكناً.. لم أوافق.. كان اليوم يمضي كشهر.. أرغب في النفاذ بأية صفة إلى «الدمام».

الأطباء يتعاملون مع المريض كحالة جسدية فقط فيسقطون ضلعين من مثلث الصحة النفسية والاجتماعية.. لم أعد من الرياض بنتائج إيجابية.. برغم العناية.. عدت مريضاً - كجورب محموم إلى الدمام.. لكنني كنت سعيداً ودخلت في تصالح جديد مع الحالة وهنئت قليلاً قليلاً.

هل يمكن اعتبار المكان «الدمام» معطفاً تلقيه عن كتفك لمجرد دخول موسم الصيف.. لا اعتقد أبداً ولكنك أيضاً لست مخلوقاً لموسم واحد بصفاته وحواشيه في الحياة ! فجأة.. أيضاً وبصورة غير متوقعة أبداً رأيت أن المعيشة في الساحل الغربي بمدينة «جدة».. تتصالح مع الظرف الصحي المكتسب تجربة، فقد احسست بتحسن ملحوظ وبأصدقاء جدد وبألفة قديمة مفقودة تجاه شجرة «الحناء» وبقرب المدينة من الجبال السروية.. أما المسألة الصعبة حقيقة.. فقد كانت تقليدية التعامل - خاصة الأقرباء - لقد كانت امتحانا جديداً مراً.. كانت ضريبته كبيرة في أوائل الأمر.. ربما وبحكم العذر الصحي الذي استخدمه بإيغال شديد أحياناً.. استطعت أن أتأقلم أو يتأقلمون مع «هذا المريض» المسكين.. اسكنهم الله واسكن المسلمين واسع جناته.. آمين.

اطلَّ أحمد من الباب وقال: تفضلوا حياكم الله.

انتقلنا إلى غرفة أخرى وكان تراث الأجداد يعلن عن حضوره، حيث أعلن رأس الخروف المفتوح بلسان مائل إلى اليمين عن وليمة

تليق بتراث العائلة. إنهمكنا في الاكل ونسيت عبد العزيز ولكنني فوجئت به يشمر عن أكمامه ويستبدل أكل الماء بالمائدة الدسمة، تبادلنا الأحاديث القصيرة ولكن عبدا لعزيز كان يأكل بلذة ما ألفتها منه بل أنه لم يشاركنا التعليقات العابرة.

- هل تظن الخروف ماء يا آكل الماء ؟

أجاب باقتضاب: هذا خروف ما بعد الحداثة والخدماتية والاستهلاكية.

- لكنه لذيذ وسريع والتجهيز.

صحتين على قلبك

فرغنا من الأكل وخرجنا إلى الحديقة الصغيرة بجوار الكادي وحوض الريحان وبين ارتشافات كاسات الشاي وصوت قرقرة الأرجلية أردت استعادة حيوية الحوار فسألت عبد العزيز:

لماذا تأثرت باللهجة الشامية التي تستخدمها في سياق حديثك أكثر من تأثرك باللهجة المصرية التي كانت هي لهجة زوجتك الأولى والأخيرة والتي كانت تناديك «عب عزيز»..؟

تنحنح قليلاً وقال: أولاً..فال الله ولا فالك.. وثانياً.. الله يمسيها بالخير.. وتاسعاً شو بدك في هالسيره..

- كيف قفزت من ثانياً إلى تاسعاً

أمرك سيدي.. والسبب في رأينا يعود إلى أن الأمور متشابهة أو متماثلة أو بليدة فالأول والآخر سواء أما بالنسبة لاستخدامي اللهجة الشامية أكثر من المصرية فيعود إلى ذوق شخصي بحت أرى أن

الشامية تعطيك المعنى بصيغة أكثر حضوراً أو تجديدية، أما المصرية فإنها تستخدم نفس الكلام لمئات الحالات.

كانت الطائرات تحط في مطار الملك عبد العزيز وكأنما وضعت علامة على بيت عبد العزيز ابن مشري لتبدأ إنزال العجلات فوق سطحه فانقطع الكلام مراراً. وحين أردت معاودة طرح الأسئلة كان صاحبنا قد ملّ الحديث واستلم للخدر الذي يعقب الأكلة الدسمة. وسألته هل تريد مواصلة الحوار قال بحدة: اشغلتني يا ولد بهذي الأسئلة «ما معك ضيعة ولا بيعة تشغلك عني» !

أدركت أن الوقت قد أسلم مقاليده للتوقف وأعطيته ما تبقى من أسئلة ليجيب عليها بطريقته.

وبعد أسبوع جاءتني آجاباته التالية

(١٤) — أقمت في القاهرة في فترة تجربة صعبة وقسرية وهناك في ساحة ذلك الزمن عشت تجربة حياتية ثقافية وصحية واجتماعية، تعرفت فيها على بعض المثقفين من مصر والعالم العربي، وامتحنت فيها صداقات عديدة جديدة وقد يمة وخرجت منها بالكثير من الغنائم مثل رواية «الوسمية» والكثير من الآلام النفسية والصحية. هذه التجربة لم نشهد تجلياتها في إبداعك بشكل مباشر.

فهل لنا أن نعرف شيئاً عن جوانب تلك التجربة ثقافياً واجتماعياً وابداعياً.

• نعم.. لقد كانت تجربة مهمة في حياتي على كل الأصعدة غير أن اهتمامي بالكتابة عن عالم خاص شديد المرارة كما رأيت.. جعل رواية «الوسمية» تأخذ المكانة الحميمية الأولى وقتها، و بعد ذلك

أخذت الأشياء تتوالى كتابياً في هذا البحر.

تجربة «القاهرة» لم أفكر بصورة جادة في الكتابة عنها حالياً.. لم يحن المناخ الملائم لقول كل شيء!..

(١٥) – تجربة الزواج والارتباط تتحول مع الزمن إلى شكل من أشكال المؤسسات وقد خضت هذه التجربة وارتضيت أن تقتحم امرأة تزوجتها، مباهج العزلة والتوحد بالذات والإخلاص لعالم الكتابة.. ماذا أضافت لك تلك التجربة وماذا أخذت منك؟ ولماذا انفصلت عن مؤسسة الزواج وعدت إلى خصوصية عالمك من جديد؟

• الزواج لم يساعدني على الإبداع والكتابة ولم يأخذني إلى مباهجها، كان لدي تصور بكل شوق وحب وانسجام في التلاحم مع زوجة أمنحها كل إنسانياتي بإخلاص شديد ومقاسمة حنونة.. ولم يكن بيننا قبلاً علاقة ما، فبعد أن وقعت في تجربة عاطفية شديدة الإنسانية مع فتاة سابقة في «الدمام» فلسطينية عربية – الجنسية.. لم نوفق في الزواج من بعضنا.. بقيت هذه العقدة – إن جاز لي تسميتها – وتم لي التعرف على إنسانة أخرى من ذات الجنسية وبطريقة تقليدية جداً في «القاهرة» ثم تم الزواج الذي استمر مدة ثمان سنوات، ومنها فترة السفر القسري للقاهرة، بسبب لا علاقة له بها.

لم يقم السفر الزواجي في طريقه لقد ازدادت الصحة سوءاً واستمرت حالات عدم الوفاق من الطرفين.. ثم اتفقا بصورة إنسانية على الانفصال.

انفصلنا في حال تراجيدي صعب وكان كل منا في حالة حزن شديد.. ولكن لم يكن هناك حل آخر.. فكان.

الزواج لم يحقق لي صفة إضافية ما نحو الإبداع بل ربما النقيض أحياناً(وهذا ليس حكماً عاماً وإنما خاصاً). أنا رجل ولأمانة في داخلي.. مخلص وصادق وعاطفي جداً، لكنني لا استطيع أن أتنازل عن قيم معينة في ذاكرتي، وفي ذات الوقت لا استطيع أن أكون فوق ظروف الواقع وملابساته.. لكنني وبكل معنى الإنسانية والوفاء – والإنقطاع – أيضاً.. أشكر الظرف الذي فصل بيننا ولا أشكر العزلة التي أنا فيها بالرغم من إناسة الكتابة اليوم.

(١٦) – أنت من أكثر الذين ضحوا بالوظيفة لصالح التفرغ للقراءة والكتابة وقد عانيت مادياً أكثر مما عاناه أشباهك، لكنك إنحزت وبإصرار عجيب لعالم الكتابة وأنجزت لنا هذه السلسلة من النتاجات المميزة. الآن ومنذ عدة سنوات وأنت تمارس عملك التطوعي في المستشفى بحيث يأخذ الكثير من وقتك وجهدك وانشغالك حتى في منزلك، ألا تخشى أن تؤثر هذه المشاغل «كوظيفة» على استمرارية إنتاجك ؟ وكيف ترى العلاقة بين الوظيفة والكتابة ؟

هل ترى أن الوظيفة كممارسة حية قادرة على إغناء التجربة اليومية وبالتالي التحفيز على الكتابة أم العكس ؟

• بالطبع لا.. ليس للتفرغ للكتابة – بدافع الشخصي – أن يمنحك عوضاً عن الوظيفة بأي حال كان فالكتابة هي إحدى السبل الأولية المؤدية إلى الأكتفاء معيشياً في المرحلة الزمنية الموضوعية، غير أن المعنى الاستراتيجي والفلسفي للمعنى الكتابي والصحي قياساً بواحد مثلي.. ستظل له جواباته الخاصة ولست نادماً ولست مختاراً أيضاً أو سعيداً، لكنني أكتب إبداعاً وأرسم وأعزف أحياناً وأحس بألم الحياة وبهجتها في أحايين محدودة بحيث أنني أحيا

وأحس وأعطي.

في حدود الانشغال الذي عادة ما يكون ارتباطاً بالوظيفة في حياة الكاتب وضمن الظروف المهيأة في إيقاعات حياتنا في الوطن العربي والعالمي أحياناً وعادة ما يكون هذا شبه مناسب إذا ما قورن بغيره من الأعمال نظراً إلى محاولة التقتير في إنفاق الوقت، أرى أن الكتابة لا يمكن أن يسكنها هذا الصنف من العمل فنحن لا نزال نعتبر الكتابة والإبداع عموماً كأنما هو نوع من مزاولة الموهبة على حافة الهواية، وهذا فيه جناية كبيرة على الإبداع، عندما نقول عن كاتب أو مبدع في مجتمعات أخرى متقدمة.. فإن معنى ذلك أنه يزاوله كعمل له جهده وإنتاجيته وتقديره.. فالكاتب عمله كاتباً وليس موظفاً محدوداً بدفتر للحضور والإنصراف، والكتابة في المفهوم الاجتماعي والتقدير الرسمي هي من أعلى الإنتاجات احتراما وتقديراً ومقدرة أيضاً.. ضمن الإبداعات التي تعتمد على الفردية في الانتاج.

بالطبع على نقيض ما يحدث في مجتمعاتنا فليس أمام الكاتب إذا أراد أن يتفرغ بإخلاص، مع الوقت والظروف للكتابة إلا أن يعتبر معيشته في بحر متصارع الامواج ليس له من عزاء إلا نفسه.

نعم.. أنا صفقت بالباب واخترت الكتابة وكان دافع الظرف الصحي المزمن يومئ بوضوح إلى أن اختياري لا بديل له إلا أن يكون أحلاها.. الاختيار صعب لا شك وأقولها بعيداً عن التنظير.. ولم يكن أمامي غير الكتابة الإبداعية والصحفية المجزأة كعمل للمصدر المعيشي وفي صحافة استهلاكية حيث تكون كلمتك هي ذاتك وموقفك وفكرك.. موازنة صعبة لكن لم يكن أمامي اختيار

بعد أن اخترت مقتنعاً بما لدي من واجب ثقافي إبداعي.. أنا لا أصلح لأي عمل تقريباً سوى الكتابة والإبداع وعلي أن أعلن عن مقدار الضريبة التي أقدمها.. لكنني حقيقة لا أصلح لأي شيء آخر حتى ولو قلنا التفرغ فقط لجمع المال أو الحفاظ على تنميته للحصول على ضروريات الحياة التي أصبح كل شيء فيها ضرورياً.. لست بصالح سوى لرغبة في الحياة والكتابة.. أكتب وأنا على سرير المرض.. وأنا مسافر للعلاج.. أقدم أولاً نوع الكتابة الواجبة كعمل ثم أنصرف إلى إبداعي.

العمل الشبه وظيفي في المستشفى.. لم يكن خارج قانون تعاملي الكتابي وهو عمل إنساني توعوي أسهم به عبر تجربة طويلة مع الحالة وإيماناً بما معناه «اسأل مجرب» فالمريض المزمن يحتاج إلى عناية شفهية نفسية معنوية.. أظنني أقدم هذا في حدود ما يتاح لي من إمكانيات خدمية ولست مقيداً بدفتر للحضور والانصراف ومن الجميل في الأمر أن مدير مركز الكلى ومدير عام المستشفى متفهمان لحالتي الصحية والكتابية.

قد يكون المناخ الذي أعمل فيه مكاناً صالحاً إلى حد ما لنوع من الكتابة الإبداعية التي طرقتها بحكم التعايش - هنا - وقد لا يكون بسبب مقدار إمكانية الاقتناص، فأنت في داخل القفص وعليه فإن الحالات التي تشاهدها تتحول إلى شبه اعتيادية إلى درجة لا تدفعك أو تحفزك للكتابة.

تعلم أن الكتابة مهما هيئت الظروف.. ليست بصنبور ينز بالكلمات والجمل فلو وزعنا كمية الوقت التي تفيض بحجم المتاح الكتابي لوجدت أنها فائضة إلى حد التخمة.. لكنها هكذا.. الكتابة

والتفرغ لها ليس بمعنى أن الكاتب ينام ويصحو على الورق والقلم وإنما هو بمعنى عدم الانشغال بما هو ضد مبدأ وطقوس الكتابة.

(١٧) – ارتبطت كتابتك بالهم الاجتماعي في مستواه الثقافي والمؤسساتي واليومي وداومت على كتابة زاوية أسبوعية وأحياناً زاويتين في صحفنا المحلية.

ألم تكن تلك الكتابة للصحافة عاملاً يستنزف شحنة الانفعال بحيث تقلل أو تجفف ينابيع الإبداع كما يرى البعض ؟

• قلت في جواب سابق إن الوظيفة التي طرقت بابها – بعد أن صفقت بالباب واخترت الكتابة – هي الكتابة الوظيفية وأعني.. أنها وظيفة لا تشترط الحضور والانصراف.. فكانت – حسب قدراتي الكتابية في الصحافة التي تعاملك بـ«الزاوية»أو القطعة.

بالطبع.. هذا يجعلك في قلق اسمه «التزام الكتابة» بحيث تقطع أي تسلسل كتابي أو التهيؤ له ذهنياً للقيام بواجب الوظيفة الأسبوعية والتي هي أقرب ما يمكن التلاؤم معه ضمن الظروف المعينة، و بالتالي لا حاجة لذكر حجم الانتزاع والإفراغ.

في السنوات الأولى لم أكن أكثرت بهذا التفصيلة فقد أدخلتها في باب الواجبات الإلزامية – عملياً – وباعتبار أنها ضريبة الإبداع وفي ذات الحال لا تخرج بعيداً عن حقل الكتابة عموماً.. لكنني ما لبثت وبحرفة أن تلمست صعوبة الحفاظ على مقياس افتراضي بين نوعين من أشكال الكتابة.. أحدهما وظيفي ملزم لا علاقة له سوى بفراغ بياضي أسبوعي يحتاج إلى تعبئة بأية صيغة كانت، عليك أن تتوقع ما يطلب بتغييرها أحياناً لمواكبة حدث ما و أحياناً بإلغائها دون إيضاح.. أنت كاتب أسبوعي في صحيفة أو اثنتين.. إذا لا تتفاوض

مع قلمك في هذا الشأن.

أظنني لا أتعامل مع حالات الكتابة بترف ولا ببعد ميتافيزقي.. ربما كان لذلك فعلاً طيباً في استثمار الوقت والزمن النفسي، خاصة إذا ما اعتبرنا أن الكتابة السردية ليست كحالات الإبداع الشعري مثلاً، لأنها تحتاج إلى التروي والمعادلة وطول النفس.

(١٨) – نشرت عدداً كبيراً من قصائدك تحت عنوان «ترنيمة» في جريدة اليوم في الأعوام ٧٧ / ٧٨م: يا عبد العزيز: أين الشاعر الذي كان يمكن له أن يصبح من أبرز فرسان كتاب قصيدة النثر الجديدة لدينا ؟

وكيف أقصيت تلك الطاقة الشعرية والوجدانية العاشقة للمرأة جسداً وروحاً ؟

● كثيراً ما يقع المبدع في الكتابة لعدد من الأسفار حسبما تجرفه رياح التعدد التعبيري، فتارة يرى في قدراته الشاعر ومرة القصة وأخرى المسرح وهكذا.. ثم يجد أنه كان غائباً عن مرفأ ما يستطيع أن يضع فيه عناء رحاله ويتزود بمعرفة حِرَفية – إذا جاز التعبير – للسفر من جديد.. تلوح له منارات مغايرة على الشاطئ كالمنار.. يعني محطة إبداعية لجنس إبداعي لكنه لا يرى أنها محطته التي يرتاح فيها وينطلق منها في أسفاره.. أنني استنفذت وقتاً – وقبل إصدار مجموعتي القصصة الأولى - داخل فناء ملون من الشعر المنثور والذي يتخذ أحياناً نوعاً من الاتفاق مع التفعيلة أو القافية كما يجرى به السرد لكنها – تلك المرحلة – كانت قادرة على التعبير عن حالات معينة من الوجدان أو الاحتجاج أو عدم المصالحة مع الذات، حيث لا يصلح في «فلاشاتها» غير الشعر.. العبارة الأدبية ونحت المفردة كانتا حليفتاي وانقدت معهما فكتبت عدداً من «الترنيمات»– كما

اسميتها - نشرت بعضها في جريدة «اليوم» آنذاك وكنت مشرفاً بملحقها الثقافي.. ثم بدافع الوله الشعري المزعوم تجمعت في ديوان من الترنيمات بعنوان «توسلات في زمن الجفاف». ضاعت حماسة الشعر أو حولت إلى متابعات القراءة وعادت الحمى إلى الافتتان بالقصة إلى أن أدخلتني سبى الرواية التي لا يمكن أبداً أن يقوم في منابها شعر ولا تشكيل، ولو أن تلويحات من الإشارات الفنارية البعيدة ترفع نارها.. لكنني أراضيها أحياناً كحب قديم في سياق الكتابة الإبداعية - دون حشو - ببعض أزاهير الحلم أو الاستفاقة الطفولية المدهشة.

(١٩) - دعني انتصر لمجموعتك القصصية الأولى «موت على الماء»، ولعلني أفسر ذلك بمعايشتي لزمن كتابتها وكتابتي لمقدمة نقدية لها أو بأشياء أخرى.

وأرى أنك قسوت عليها كثيراً وأعتقد أن لغتها الشعرية المتشحة بالمجاز الغامض ليست عيباً في حد ذاتها وإنما القصور قد يكون كامناً في حداثة الوعي والمعرفة وعمق التجربة لدى الكاتب، ولسوف نستدعي إلى الحديث «مليحة الغنم» والحماطة.. واللوز.. وسواها أليست عوالم القرية كامنة هناك ومصاغة بلغة شعرية طقسية لم تكن تجربة الكاتب كافية آنذاك للتعبير عنها ؟

• مجموعة «موت على الماء» القصصية الأولى.. كانت - وبحق - نتاجاً لما قدمته في أولها من تقديم ولعلني كنت على نقيض ما تفضلت بكتابته في مقدمتها.. أعني - وقتها - لكنني اليوم بوعي أحترم ما كتبته أنت - دون وعي عقلاني، معرفة مني تجاهها.

لكنك مع احترامي لـ«أستاذيتك» السابقة لإداركيتي.. وجدت

اليوم.. أنها جد معقولة.. وقد تنبه الأستاذ الناقد «حسين حمودة» في – مصر – إلى أن لدي نوازع كتابية دفينة نحو القرية وعالمها وقد نشر ذلك في مجلة «الدوحة».

لقد استفدت كثيراً من هذا الرجل الجميل في مسألة جذب النظر إلى عالم القرية.. العالم الخاص برغم انقطاعي الطويل عن ملاحظاته المقدرة المحترمة. ولعلي برغم تجاوز الوعي.. لم أره ولم أقابله.. لكنني للأمانة.. أشكر فضله الفعال في كتاباتي الروائية الأولى.

لكنني.. لا أنسى أبداً وقوفك ومزاملتك وتزويدك بالكتب المفقودة محلياً وبإنسانيتك العظيمة وقتها صحفياً وثقافياً وإبداعياً.. بالرغم من صلابتك أحياناً، يا معلمي الشاعر «علي الدميني»! الصديق الجميل بالرغم من قريتي الصلبة وجفاف تعاملي معك، ومع أستاذنا «محمد العلي» و«جبير المليحان» أحياناً.

إن جريدة «اليوم» بجماعتها الكتاب.. كانوا أساس توجهي نحو سبيل الكتابة.. برغم معاندتي وإصراري الصخري الكتابي. وأيضاً – بصدق – تجاه الأستاذ «محمد الصويغ» الذي شجع كثيراً من لوحاتي التشكيلية الأولى وصرعني مراراً تجاه كتاباتي الصحفية والفنية وذلك لحرصه الشديد فقط على جريدة «اليوم» بـ«الدمام» التي كان يرأس تحريرها آنذاك.

أذكر أنك يا «علي الدميني» كنت أول مرافق لي لأول سفرة خارج «المملكة» ٧٧ / ١٩٧٨م – إلى مصر وكان الأستاذ الناقد «سامي خشبة» مترجم جزء من مؤلفات «كولن ويلسون» الفيلسوف البريطاني.. حين اختار قصيدة منك وقصة قصيرة مني بعنوان «الغنم.. مليحة.. وموت الحماطة» ونشره في الملحق

الثقافي بجريدة «الجمهورية» بـ«مصر» !. لا أعرف بالتحديد.. أي عام لكنه كان في سنة ترجمته لـ«الإنسان» وقواه الخفية لذات الفيلسوف الانجليزي وقت زيارتنا له بـ«القاهرة» ذات عام فلعل هذه المناخات والصداقات والقراءات أثرت في كتابتي لمجموعة «موت على الماء» ولكنني ما لبثت أن خرجت منها إلى ذاتي وعالمي الذي أحسه بحنان شديد لأكتب منه ببساطة وعمق ما أتحسسه منه وذلك في كل مجموعاتي ورواياتي التي تلتها.

(٢٠) – استطراداً للحديث عن «موت على الماء»: حين نتحدث عن مستويات اللغة في كتاباتك يرصد البعض انتقالك من تجربة «موت على الماء «من لغة تجريدية طقسية ذات تكثيف ونبر شعري عال ومجاز موغل في انزياحة إلى لغة مغايرة ذات جمالية تأملية ساخرة في مجموعاتك الأخرى خاصة «أسفار السروي» و«الزهور تتثائب في النافذة» ثم إلى اللغة البسيطة السيالة في بعض رواياتك(الوسمية مثلاً) والتي تتعامل مع اللغة كوسيط ناقل بمعزل عن جمالياته.

ويرون إنك لو حافظت على جمالية «شعرية «موت على الماء وتأملية وحكمة ما بعدها لكان لنصوصك الروائية ثراء إضافياً هاما فما رأيك في هذا التحليل ؟

• أرى أن الإنسان عموماً وليس الكاتب المبدع وحده.. هو نتيجة تجربة كتابية وإنسانية أولاً تصل إلى الحد الذي وصل إليه.. أنا كتبت في مرحلة(أعتقد أنها ثائرة الدم والعصب والفن).. مجموعتي الاولى «موت على الماء»..النقاد أعتبروني ضدها لغة وفكراً بحكم اليوم.. لا مشكلة!.. أنا اليوم (نهاية القرن) وبحكم التطور المرحلي (في العمر والتجربة).. لا يمكنني أن أكتب لذات

اللغة والنحت المفردي الخاص في مجموعة «موت على الماء».. مع أن الموت لا يزال قائماً.. لكنني ادركت - بعد غياب سبع سنوات - من هذا الإصدار.. أنني أكتب لفئة خاصة وفي اللغة تحديداً.. مما جعلني أعيد النظر في هذه المسألة.. فكتبت «الوسمية» و «أسفار السروي».

بعد سبع سنوات من الانقطاع رأيت أن على الكاتب أو المبدع الفني.. أن يخاطب واقعه وليس العالم المتفوق من أجل مواكبة المدارس الفنية.. نحن نعيش في واقع متخلف جداً.. ثم أن واقعه لا يفهم من لا يخاطبه.. لقد آمنت بأن اللغة هي الوسيلة التعبيرية الوحيدة ضمن الظرف المتاح القادر على الوصول إلى أكبر قاعدة من المجتمع، وبعد كثير من الأسئلة مع الذات الإبداعية.. رأيت أن تكون لغتي في رواية «الوسمية» لغة معيشية يومية مهما بلغت درجة تنازلها - قياساً بـ «موت على الماء».. رأيت أن التي تقف بيننا ككتاب مبدعين وبين العالم الذي نتوجه إليه.. هي «اللغة» وسيلة المخاطبة التعبيرية.. إذاً لماذا نقحمهم في التجارب اللغوية وتحديداً «التجريبية» التي قد تكون مسرحاً.. لكنني أتحدث عن اللغة.

رأيت بصورة واقعية.. أن المجتمع لا يمكن أن يفخر بدعوى اللغة فقط وإنما لأسباب مهمة أولها لغة التخاطب - الممكن - لغة الكتابة - ولا أقول المايكروفون أو المنبر أو غيره من الوسائل المتاحة والمحددة لتطويع الشكل التقليدي المكرر.

ونحن قوم متخلفون حقيقة.. تقليدية مسايرة لما يملى عليها - بصرف النظر عن الوسيلة - أنا لا أعتقد بأن الإنسان في أي مجتمع كان.. هو محصلة تلقائية بليدة لما يملى عليه وفي ذات الظرف

ليس خارج ملابسات ظروفه – لذا كان علي بحكم هذا المفهوم.. أن أتوجه إليه بلغة قادرة على الوصول.. قد يكون في هذا تنازل عن قيمتي الفنية اللغوية.. لكنني واقعياً لا استطيع أن أقفز خارج أسوار المجتمع في حدود التوازن بين الفنية المعاصرة والخاصة وبين الواقع.. إنه لأمر صعب جداً، لكنني حاولت وربما نجحت قصصياً وروائياً.. قصص مجموعة «أحوال الديار» كانت من أهم ما صغته في حياتي القصصية للمجتمع القروي.. لم ينتبه بعض النقاد إليها فالنقاد وبعضهم يقرأ النتاجات الإبداعية الكتابية حسب منظوراتهم وأكاديمياتهم.. ولكننا في التاريخ (ككتاب) أقوى الجميع!

– اعتقد أن أحد أسباب عدم الالتفات إلى تلك التجربة الكتابية المتميزة في «أحوال الديار» وماتلاها مثل رواية «في عشق حتى» مثلاً كان بسبب كتابك الدقيق والعميق «مكاشفات السيف والوردة» لأن هذا الكتاب فجر الكثير من القضايا الفنية والتأملية والنقدية أيضاً، حيث كشف هذا الكتاب لعبة الكتابة وإستراتيجيتها لديك فانشغل النقاد به عما سواه!

• «افلح إلمح لك ضيعه».. هذا كلام لا ينبغي أن يكون.. المكاشفات عمارة تطل على داخلي ككاتب وليست عملاً سردياً وإذا كان هذا الاستنتاج صحيحاً – وأرجو ألا يكون كذلك – فإنه أمر غريب منك ومن نقادك هؤلاء!!

(٢١) – تتميز كتابتك للقصة القصيرة بسمات عدة على صعيد اللغة من خلال التأمل وخلخلة السياق النحوي ونحت مفردات جديدة وحضور المفارقة الساخرة.. إلخ، ونجد ذلك أيضاً في مقالاتك الجميلة، بينما تقل هذه الكثافة اللغوية في نصك الروائي فكيف

تفسر لنا ذلك ؟

• قد يكون هذا ملموساً عندك كناقد أو كقارئ – يحمل ذائقة فنية –.. وبالطبع فأنت تعلم أن الكاتب هو الذي ترى قلمه يخوض بمستويات مختلفة في اللغة..

أصدقك القول أنني لم أفكر في هذه النقطة، لعلني فكرت في مسألة (عدم افتراض الوعي لدى القارئ وإنما خلق الوعي فيه)، وأضيف ملاحظة.. أنني كاتب يطرح إبداعا في نسيجه إنسان – عالم –.. فأنت لا تستطيع أن تكون مبدعاً فقط تضع تحت مخدة ما تكتب شهادة الآخرين أو إعجابهم.. هذا لا يشغلني.. التأمل لتفاصيل الحياة وجزئيات تراكيبها.. يحتاج إلى لغة غير استعراضية.. لغة تتحرك في جنباتها سردية المشاهد المنمية.. قوة العبارة الروائية – في نظري – تكمن في عرض البلاغة الفنية خلفها وليس في واجهتها اللغوية المباشرة، وإذا كانت القصة القصيرة تملك خصائصها في تكثيف اللغة مثلاً.. فقد تكون هذه الخاصية غير موجودة في العمل الروائي أو بمعنى لا مكان ضرورياً لها.

هذا لا يعني أن الكاتب يتحرك في حدود النظرية التي يراها الناقد أو موازينه في كيل العمل فهذه معركة مضحكة وإنما لأقول:

الانتصار ليس في اللغة المبهرة التي تشكل إناء العمل.. فقد جربت ذلك ورأيت أنني مبدع لغة فقط، أكسب من ورائها تصفيق المثقفين المتذوقين وإطراءهم ولست كاتباً غير قابل للاحتمالات بما فيها فهم ما أكتب، وإلا لن أقدم شيئاً يستحق أن يكتب وبالتالي أن يقرأ.

لقد رأى البعض أنني كتبت عملاً مجيداً هو «موت على الماء» ولم أكتب شيئاً بعده والسبب مستوى اللغة الشعرية فيها، لكنني

أرى غير ذلك تماماً.. لانني لو أردت أن أنحت لغة من أجل اللغة بعد «موت على الماء» لفعلت وليس ثمة صعوبة.. بل إن هذا قد يرضي غروري.. غير أن قناعة ما أكتب به اليوم.. لم يأت لمجرد مزاج وإنما نتيجة لصراع طويل مع الموازنة.. الموازنة بين الفن والمحافظة على قيمته الدلالية - الخاصية - وبين القارئ الذي لم ولن يفهم لغة الكترونية خاصة.. ربما كانت قناعاتي نقيض ذلك تماماً وأرى أيضاً أن الأعمال الروائية التي كتبتها.. لا تخلو من الفن الذي أستوحيه من نوعية العمل - وليس صيغته - مع كوني في ذات الوقت مناهض للغة المجردة.

(٢٢) - كما نعلم بأنك من الروائيين الذين اطلعوا مبكراً على تنوع وغنى تكنيك الخطاب الروائي المعاصر عربياً ومترجماً عالمياً ولكننا نجدك في أعمالك الروائية قد انحزت إلى تجربة السرد الروائي البسيطة التي تعتمد على تساوق نمو الحدث والزمن معاً في خطية تتراكم وتتشابك علاقاتها تدريجياً حتى تفضي إلى خاتمتها، ولعل ذلك ينسجم مع رؤيتك للرسالة وطبيعة العالم القروي الذي تشتغل عليه وطبيعة القارئ المتخيل المرتبطة بداهة بذلك العالم، وهنا نتساءل واستناداً إلى خبرتك الطويلة في كتابة الرواية عن رأيك في إمكانية الاستفادة من تلك التقنيات وتبيئتها في عمل روائي قادم لك؟

• أظن أن العالم الذي يمثل مادتي الكتابية في الأعمال الروائية والذي يحمل عمقاً بعيداً في الجذورية.. أعني التراكم الثقافي مع المنتج له أبعاد كثيرة ولا يمكن أخذ ما أكتبه على أنه كل تلك الأبعاد، غير أنني أحسست بضرورة الموازنة مع المحافظة على المنظور التوثيقي الحقيقي - كواقع - وبين صراعي الصعب مع الكتابة السردية الروائية فيه، لذلك كانت المسألة مقلقة لي على الدوام..

يضاف إلى ذلك، أنني في البداية كاتب واقعي حيث يعتبر البعض أن الواقعية مدرسة لها أساتذتها ومناهجها الدراسية التي تشكل سوراً له حدود، وهذا غير صحيح.. عندما أكتب بواقعية فليس معناه حجري على عدم استعمال تقنيات الكتابة أو التكنيك ! فاللغة ليست ملكاً لكاتب دون غيره ونحن لسنا أمام مخترع علمي نبدأ فيه حيث أنتهى الآخرون بل أمام كائن حي اسمه اللغة.. يتطور بتطور الحياة بمجملها ومعطيات الإنسان اليوم تتطلب أن يكون معها بالضرورة لغة متطورة تستوعب التعامل معها، أما بالنسبة للتقنيات الروائية العربية والأجنبية - والتي قرأتها مترجمة - لا تعني أنها مخترعاً علمياً، لذلك لكل كاتب تقنيته ولغة خطابه وتقنيته أنا واحد من هؤلاء.

ذهابك ثم عودتك حول اللغة والتكنيك.. يعني لي أنك ترى أن اللغة كإناء جميل يجب التركيز عليه وبصورة أساسية في العمل الروائي.. وهذا يمثل وجهة نظر بعض النقاد والقراء وهذا طبيعي مفترض فيه مبرراته وقناعاته.. لكنني قد لا أرى ما ترى فاللغة لدي هي وسيلة تخاطب وتعبير لكنني أيضاً لا أنفي أبداً - وظيفياً أن قلمي مسئول عن الارتقاء بذائقة القارئ - فنياً - أنا أعلم هذا، ولا أعتبر كتابة العمل الإبداعي خارجة عن إستراتيجيتها.. ولكن.. هل ترى أننا نستطيع أن نستقطع اللغة عن بقية الامور الاجتماعية اقتصاديا وثقافيا وتاريخيا معيشيا. .بحيث نعمل في سبيل جعل اللغة الشاعرية هي العمود الأول للتعبير، فتطوير الشكل في المسألة الاجتماعية لا يغير الجوهر - اللب - فكيف لو رأينا أن الكاتب عموماً ليس إلا رافداً، فاعليته لها حدودها وإمكانياتها.. ومجتمعنا مقل جداً على صعيد القراءة.. إضافة إلى أن الكتاب أو المادة القرائية تقع تحت

مستوى الاهتمام المؤسساتي.. فالواقع يقول إن الاهتمام بتجارة البصل أو الصلصة يحتل اهتماماً في التوزيع والمتابعة والتموين المستمر.. أكبر من مجرد التفكير في الغذاء الثقافي.

إذا كانت كتابتي الروائية بسيطة اللغة بل إن «الوسمية» قد كتبت بلغة المعيشة اليومية.. فما المشكلة في هذا ؟! علمت أن الأميين في القرى الجنوبية.. يجعلون أولادهم وأحفادهم يقرؤون عليهم ما أكتبه.. لأنهم يجدون إنسانيتهم فيها وبلغة مفهومة، وهنا تكمن إحدى استراتيجيات اللغة التي أتحدث عنها.. هذا لا يعني أنني كاتب - أقليمياً او قبلياً - فقد تعرضت الرواية إلى مستويات من الأقلام النقدية والقرائية من خارج المملكة وبصورة مشجعة.. ترى في ذلك أنني أكتب بلغة المعيشة اليومية أو بلغة بسيطة وليست أقليمية بالطبع.

لعلك ترى ان أعمالي الروائية لم تكتب بتقنية واحدة فـ«الوسمية» تختلف عن «الغيوم» و«صالحة» ليست كـ«الحصون» وهكذا.. بالرغم من كون العالم هو ذاته وذات القوام وذات المكان.. لقد تطلبت كل رواية تقنيتها التي رأيتها تناسبها دون تنظيرات مسبقة.

(٢٣) - يلاحظ على الرواية المحلية إغفالها للواقع المعاش واستبداله بواقع آخر إما باستلهام هموم المثقف أو قضاياه الثقافية والفكرية والسياسية وإما بالعودة إلى عالم القرية القديم وتحميله قضاياً معاصرة أو بالذهاب إلى الخارج لتحريك شخصيات النص في بيئات مغايرة تسمح بحرية التعبير والتعرية للعلاقات الاجتماعية والعاطفية وحتى الفكرية.. يا ترى ما هي الأسباب الكامنة وراء ذلك ؟

- وهل تتوقع أن تظل الأسباب المتعددة في موقعها حتى بعد بروز

فعل آليات الاختراق الكلي للحواجز في عصر العولمة من فضائيات واتصالات بما فيها الانترنت ؟

• أفهم من قولك «عالم القرية».. أن المقصود بالعودة إلى الماضي كحل اسقاطي أو كطريقة لإظهار عدد من القيم الحضارية التي كانت سائدة في الواقع القروي القريب ومدى تأثر تلك القيم حالياً فيمن ورثها أو مارس بعضها.

نعم..

لو قلنا إن الرواية - من أحدى الزوايا - هي كشف لعالم مغطى - بصورة أو بأخرى حتى ولو كان على صعيد التجربة الشخصية، فإن كتابة الرواية ستصطدم فوراً بعدد من الأسوار التي لا تسمح بالكتابة الروائية - تحديداً.

إن كلمة «حرية تعبيرية» لا يمكن كتابتها على لافته وحملها على بوابة الكتابة والكتاب.. حيث أن هذا قول مثالي ما لم يكن مرتبطاً بكليته بالواقع الاجتماعي وأظن أن المثقف يعلم ذلك ويعلم عبر عدة عوامل محشوة بالوصايا والمحاذير منها - الرقيب الذي تربى مع الزمن الكتابي في ذاته -.. كيف يصنع حلوله الكتابية بحيث يستمر ويستطيع أن يقول شيئاً مما يحمله من جمال مهذب تجاه الواقع.

كاتب الرواية - في حدود تجربتي الخاصة - لو وضع أمامه تلك الحواجز والموانع فلن يكتب شيئاً إذ أن حاجز الفهم الاجتماعي التقليدي والذي يكون مادة الكتابة.. سيكون أول المحبطين لمشروعه الكتابي فنحن في عالم شديد الوصاية متخم بالعيب والشائعة ولو لمجرد الذكر ولعلك تعلم انني عانيت من هذه المسائل التي علمتني الكثير.

إذا..

الأسباب الدافعة وراء الكتابة من الخارج أو العودة إلى الماضي - في الضفة الأخرى - معروفة وكما يقال فإن «الحاجة أم الاختراع».

(٢٤) - ما هي أقرب أعمالك الروائية إليك وكذلك القصصية ؟

• كلها قريبة لكنني استطعت أن أرتاح قليلاً تحت ظل ورقات رواية (في عشق «حتى»)، ربما لأنني قلت مما يقع في السريرة وبصورة صادقة مباشرة دون وسيط.

(٢٥) - كيف تكتب الرواية ؟ وهل تخطط لهل ؟ هل تعدل وتضيف لمسودتها ؟ هل تتركها فترة طويلة ثم تعود إليها، ومتى تقرر نشرها؟ وما الفرق بينها وبين كتابة القصة القصيرة؟

• لعلك ترى العالم الفني الذي أنبش منه خامتي الكتابية.. كنت في البداية أقف أمام جبل كبير لا أعرف كيف اقتحم حدوده.. ومع التجربة أصبحت الامور بمجرد مرجعية الفكرة.. تتعاود الأشياء وتشكل ذاتها لتقيم خطوطها دون تخطيط مسبق.. تبقى النهايات حيث لم أتعود الوصول أو الركض للوصول إلها، وهو أصعب ما يواجهني في كتابة العمل الروائي لذلك تجدني أدعها للاحتمالات في الغالب.

اكتب الرواية - وكل كتابة تقريباً - مرة واحدة هي السوداء وهي الأخيرة البيضاء.. ربما استفدت بحكم المنسوب البصري.. كيف أفكر قبل وضع الكلمة وليس أثناء وضعها أو بعدها.. ربما جعلني ذلك أتعامل مع الكلمة المكتوبة بحرص ودقة شديدتين.. غير أن هذا يحتاج إلى تريث وأحياناً بطء وعندما أكتب مقطعاً أقرأه واستبين

أخطاءه فأقوم بإصلاحه ولا أتركه حتى أكون قد ضمنت بعدها كيف ابدأ فيما يليه او على الأقل معرفة النقطة التي وقف عندها القلم.

أنا لا أعيد كتابة ما كتبت وإذا كان ثمة بعض التعديلات فإنها لا تأتي على الخطوط العريضة أبداً ولا أذكر أنني بنيت دوراً فهدمته من أجل هيكلية التغيير مع أنني أتمنى لو أن ذلك يحدث وأجدني هزيلاً إلى حدود العجز حين لا أجد مكاناً لنقل بعض جدران البناء من الداخل بل وأحسد الكتاب الذين يعيدون كتابة ما كتبوا فلا شك أن ذلك يمنحهم نافذة لإضاءة هواء المبنى.

لم يحدث وأن كتبت عملاً روائياً في أقل من عام وبعضها استنفذ مدة طويلة مثل رواية «صالحة» التي نسجت بين حالة وأخرى لوقت يقاس بسنوات ثم قدمت للنشر.

عندما أكتب العمل لا تأتي في بالي جهة النشر أو مكانها أو حتى فكرة النشر.. أكتب فقط وأعيش الكتابة وشأن موضوعها في كل شيء، و عندما أنتهي من كتابتها.. فهذا يعني لي أنها جاهزة للنشر تبقى القراءة الأخيرة التي أسميها(قراءة النشر)

أما كتابة القصة القصيرة فتختلف اختلافاً واسعاً.. حيث أنها لا تأخذ وقتاً إلا لحالتها وزمنها النفسي اللائق ولم يحدث أن كتبت قصة ثم تركتها في مقطع ما للتكملة.. القصة إذا ما حانت فهي - برغم صعوبتها - تأتي كالولادة التي ينتهي ألمها بالبشرى.. حيث تجد انك حققت نصراً ما ومكافأة لها قيمتها النفسية العظمى.

عندما ألاحظ أن القصة تتوقف عند مقطع أو نقطة ما.. أجزم مع ذاتي أنها فاشلة فأدعها قائلاً لعلك أجهضتها.

أقتل بالاستعجال فرحتها وتلك الفرحة لن تعوض.. لانك لا توقت للفرحة ولا تتحكم في حجمها.

(٢٦) – هناك عناية فائقة في اختيارك لعناوين نصوصك متى يبرز العنوان وما دلالته بالنسبة إلى العمل الإبداعي؟

• لا اعتقد دوماً أن المسمى متصاهر مع الاسم ولا أن الاسم دائماً دال على العمل المكتوب، فأحياناً لا يكون ثمة أية علاقة بين النص المنسوج وبين اسم العمل، و لا اري في ذلك عيباً، لأنك تخطيء لو قلت أبداً «الجواب» معروف من عنوانه– أي الرسالة – فالعمل الكتابي يميل في تسميته إلى تفصيلة رضى خاصة في داخل الكاتب وليس هناك قانون في هذه الجزئية، فهي في سياق الإبداع الذي لا توجد له منطقية في التعامل.. لو أنك وضعت الاسم قبل الشروع.. فقد خالفت حرية الشرعية الإبداعية بحيث تقيد قلمك ضمن إطار محدد لكي تحافظ على الاسم.

ربما كان من أصعب الأمور في العمل الإبداعي إيجاد مسمى له أو الوقوع في بركة الاختيارات. أنا لا أقبل أن استشير أحداً في عنوان مؤلفي لانني لا أقبل أن أكون مستشاراً للعناوين من قبل الاخرين، وعادة ما أرفض هذه الوظيفة لدى من يطلب.

إن العنوان الذي لا يعجب.. لن يقدم أو يؤخر في الأمر، ذلك أن العمل بكامله بين عينيك لاننا نحتاج أن نجعل للعمل عنواناً وهي حاجة رمزية دلالية.. هل تقول قرأت النص الروائي الذي كتبه فلان.. أي نص؟ لا بد من وجود تسمية حتى ولو كان عنوانها «بلا عنوان» أنت والد المولود فسمه كما تشاء.

تعجبني عادة في التسميات عند أحد القبائل المحلية فهم يسمون

المولود باسم الحالة التي تقع فيها الولادة.. فإن كانت حزينة أسموه حزيناً وإن كانت مريضه اسموه رضا وإن جاءت في لحظة مطر.. أسموه كذلك وهكذا..فلو ولد المولود في لحظة مدفع الافطار أسموه «مدفع» ومنها «عذاب» و «ضيف» «كتاب» يعني رسالة و«صوت»و«ليل» و.. إلخ..

(٢٧) – ما أهم الكتب التراثية التي استفدت منها سردياً ؟

• كل الكتب التي قرأتها تقريباً.. كان لها فائدة وأقل ما يمكن قوله أنها تهذب لفظك قبل خروجه من بطن القلم. كان للصدف دور في انتقاء القراءات التراثية وأذكر على سبيل الذكر كتاب «الإمتاع والمؤانسة – لأبي حيان التوحيدي «ورسالتي الغفران» و «الملائكة» لأبي العلاء وكتاب «المخاطبات» وكتاب «المقامات» وغيرها، غير أنني أدين جداً لـ «طه حسين» الذي علمني فكراً ولفظاً وبالتحديد في كتبه «الشيخان» و «عثمان» و «علي بنوه» وكتاب له قديم عنوانه «الاليثنيين» مما دفعني لقراءة «محمد صلى الله عليه وسلم» و «علي إمام المتقين» لعبد الرحمن الشرقاوي.. هذه محطات لها علاماتها الأثيرة في قراءاتي.. كدت أنسى «بدائع الزهور» لـ «ابن إياس».. هذا الكتاب استطاع أن يصور لي التاريخ سينمائياً وعلى هيئة مدهشة ودقيقة ولن أحدثك عن أخبار النساء «لأبن الجوزي».. كم وكيف نتحدث عما قرأت في التراث مما صادف قراءته.. أقول مما صادف فقط وضمن محدودية ضيقة جداً.

(٢٨) – لك كتاب صغير.. كتاب جمع مادته صبي في الرابعة عشرة وأصدرها في السابعة عشرة هو «باقة من أخبار الأدب».. ترى لماذ تهمل ذكره رغم دلالاته على مكوناتك الثقافية التراثية وانهماك

بعالم الكتابة والنشر منذ الطفولة ؟

• نعم.. كان ذلك في عمر (١٨ عاماً).. هي تجربة مضحكة.. لكنها بظروفها ومحصولها الثقافي البسيط جداً ولا أرى أنها تستحق الإشارة.

(٢٩) – لو قمنا بزيارة إلى مواقع أبطال أعمالك فأي المواقع ستبدأ بزيارتها أو تأملها من على سطح منزلك في قرية «محضرة» التي تطل على مدينة الباحة ؟

ومن هم أبــرز أبطال رواياتك الذين ستزورهم في منازلهم أو مقابرهم؟

ومن هن أبرز الشخصيات النسائية اللائي تحس بحنين إلى وجودهن في تلك القرى ؟

• لا استطيع ذكر الشخوص الذين وردوا في الروايات أو القصص القصيرة.. ليس لأنني لا أعرفهم بل لأنهم يمثلون نماذج متعددة في القرية الجنوبية، ولعل من الصعب الإجابة على مثل هذه التفاصيل بالتحديد فأنت تسألني عن ميكانيكية الشخصية وكيفية توظيفها أو ما يشبه هذا.. غير أن تحديد الشخوص بعينها أو المقابر التي تأبدوا دواخلها.. أنا أعرف المقابر التي تقع في قريتنا وهي خمسة مواقع تقريباً فقريتي تمثل خمسة جماعات متباعدة كل جماعة تمثل قرية صغيرة، وكلهم برغم المسميات التي تحملها كل مجموعة.. إلا أنها تمثل قرية واحدة كبيرة اسمها «محضرة» كمسمى جامع لكل ما يجمع الجماعة الواحدة.

أذكر جيل الأجداد والآباء والجيل الذي تقارب معي ببيوتهم

ومزارعهم وربما بألوان مواشيهم وربما طباعها والتعامل الذي تختص به.. كثور فلان المتمرد وحمارة فلان الشرود وبقرة فلانة التي لا تأكل غير البرسيم وقصب الذرة وتحلب كثيراً.

أحياناً أحتاج إلى معرفة لون ملابس امرأة ما.. فأستعيدها بدقة من حذائها إلى «شيلتها ومعصبها» وحتى الخواتم الفضية التي كانت تلبسها وفي أي الأصابع تضعها؟

أتذكر «مشعاب» فلان وجنبيته واسم بندقيته وماركتها.. واحد في القرية كان يملك «غدارة» وهي شكل رخيص للسيف ويملك رمحاً قديماً ويعلق على كتفه بندقية صيد لو وضعتها بين مائة بندقية مشابهة لاستطعت الآن أن أحددها لك.. أعرف فلاناً الذي لم يكن يلبس الحذاء ولا «الجاكيت» ولا العمامة البيضاء أو العقال وعندما أذكر فلاناً أو فلانة فإنني أذكرهما بتفاصيل العائلة وجهة باب الدار ومكان النافذة والطريق إليه من بين البيوت.

إن حميميتي تتذكر الأشجار ومواقعها وهل هي مثمرة أو خشبية، والطريق بحجارتها وصخورها الواقعة على جنبيها وحدود القرية مع القرى المجاورة والحصون والآبار والمزارع التي تسقي منها.. أذكر «العثري» المعتمد في زراعته على ماء السماء و«المسقوي» الذي يسقى من العيون أو الآبار، أذكر «مشب النار» في كل بيت من القرى الخمس الصغيرة.

اخوالي من قرية بعيدة و من قبيلة غير القبيلة التي فيها قريتنا، وكنت أذهب إليهم مع والدتي مسافة نصف يوم مشياً على الأقدام ولا أنسى تفاصيل الطريق والقرى التي نمر بها وبالطبع أسماءها ومساجدها ومدارسها الابتدائية والشعراء المعروفين وقراهم..

ماذا أقول ؟.. إن كل شخصية تستحق أن يكتب فيها رواية وكل رواية لا تنفصل عن الجماعة.. قريتي هي ذات القرى المتشابهة في الجنوب والأشخاص هم ذاتهم في كثير من التماثل في أي قرية كانت.

اليوم.. أشاهد غير القرى وغير العالم..أوجس عندما أمر بها بالوحشة.. أجد أن طفولتي تذبح عند عتبة أول بيت حجري في القرية.. أشاهد الناس يبيعون عظام وهشيم أجدادهم من أجل المال والمطاولة في بناء الاسمنت والطوب والحديد.. ما الذي يبقى إذا لم أكتب عن ماضي القرى وخصوصيتها وألفتها وأعرافها ؟!.

(٣٠) – هناك من يرى أن كتابتك عن عوالم القرية تطورت تدريجياً من فكرة التوثيق إلى جمالية حالة الاستعادة الوجدانية، ثم إلى رؤية أخلصت بشجاعة وعمق لرؤية الانتصار للمرأة في عالم يقف ضدها حتى أفضت التجربة إلى تعرية عالم القرية من رومانسية الاستعادة وجعلها نموذجاً يشبه غيره من المجمعات البشرية التي تقوم حياتها على الصراع بين أطراف يتحاربون بكافة الوسائل لبلوغ غاياتهم النبيلة والدنيئة في رواية «صالحة»، وبذلك انتقلت الكتابة من طبيعتها الملحمية التي تكتب الواقع كما هو إلى طبيعتها التراجيدية حيث تغدو الرواية كشفاً وجدلا وتأملاً في الجانب الآخر من المأساة الحياتية.

وهذا التطور يشجع بعض المتابعين لتجربتك للقول بأن رواية «صالحة» هي خاتمة استلهام عالم القرية ونهايتها وبالتالي سيدخل الروائي عبد العزيز مشري مناخاً آخر مختاراً أو مضطراً لكي يستمر في أبداعه.

ما رأيك في هذه التوصيف والاستنتاج؟

• لا أكتب من أجل الطباعة والنشر.. وفي ذات الحال لا أكتب إلا من أجل أن يحيا القارئ نصوص ما أكتبه وذلك بمفاد يهمني كثيراً وهو أن يجد القارئ شيئاً منه في العمل.. لا أعني تحديداً تطابق أو تماثل وتشابه الرواية مع حالته وإنما هو يجدها ؟ بأية حال كانت.. كأن يناصر أو يناوئ أو يتعاطف أو العكس.

لم يكن هذا المفهوم في الذهن قريباً لقد كان بعد صدور قصص «موت على الماء» ذات النحت المفردي في اللغة – كما ذكرت والتي أرى أنها محتشدة بزخرفة اللغة والضبابية أحياناً.

لم أفكر في النشر بعدها ولمدة سبع سنوات.. كنت أتأمل وأجرب وأقرأ.. فكانت نتيجة الديالكتيك الطويل – قياساً بالنشاط الكتابي والحماس أن وصلت إلى مفهوم ثقيل ومهم في الفن ورسالة الكتابة الإبداعية، أولها التفكير في طريقة كتابية يستطيع أن يقرأها القارئ فيقول «فهمت أو كدت أفهم» كان هذا على سياج القصة القصيرة.. فتكونت مجموعة قصص «أسفار السروي» ثم رواية «الوسمية»

نعم..

ربما تكون «التوثيقية» هي أحد خطوطها بالطبع.. الشهادة الإبداعية التي نكشف بكتابتها عن عالم له طريقة خاصة في معيشته ومكانه ومناخه وزمنه..– هذا الخط – كنت ولا أزال حريصاً عليه كميزة ليس من نافذة «نحن كذا» وإنما من باب «نريد أن» ومهما كتب.. سيبقى هناك الكثير من مناقب ومميزات وتقاليد ومفاهيم لم تكتب وربما عزيت نفسي بأن الأديب ليس باحثاً أنثروبولوجياً.

رواية «صالحة» قضيت وقتاً طويلاً بين كتابتها ونشرها ولم أكن متشجعاً لتقديمها للنشر – كغيرها أحياناً – فكرت ثم وجدت

ترحيباً مطمئناً ومحفزاً لنشرها من «الهيئة العامة للكتاب» في مصر، فكان أن خرجت إلى القارئ.

أظنني لن أتوقف عن المسير في هذا الدرب لأن ثمة أقوال في سحابة الصدر لم تمطر بعد.. ليس صحيحاً أن القلم سيجف بعد «صالحة» لا أدري.. لماذا تصورت التوقف أو الحيرة.

- إذا.. هل يمكن أن تدلنا أو تشير على الأقل إلى إستراتيجية نصوصك الروائية القادمة في نفس سياق «ملحمة القرى» ؟

هناك مرحلة كتابية مهمة تجاه عالم القرية ويبدو أن أحداً لم يطرحه أو يشير إليه أو يستقصيه من نقادنا - المحدودين-. المرحلة الصعبة التي يحتار «رامي القرص» - كما ذكرت في سياق جواب سابق يحتار كيف يعطيها حقها كمرحلة نابضة وتبدو يسيرة لقصر وقتها بينما هي عالية الصعوبة.. تلك هي المرحلة التي تقع بين التقاط القرص وبين رميه أي مرحلة ما بعد الالتقاط - فيما لو اعتبرنا ما سبق كتابة - فأنا في حالة التهيؤ لما سوف يكون.. هل أسميها ما حدث لذلك العالم المكتوب عنه بعد ذلك وما هي الصيغة التي أتعامل فيها مع المعطي الجديد؟

الحكاية تتطلب خبرة واثقة وإدارة كتابية محكمة في رصد مرحلة «البين» أو العقدة الواقعة بين طرفي الحبل. في الأعمال الماضية في ضفتي السرد القصة القصيرة والرواية.. هناك إشارات متفرقة وبعضها مركز - كنهايات الأعمال الروائية - دائماً يبقى السؤال:

ما الذي حدث بعد هذا ؟

السؤال في نظري لا يزال معلقاً في «العقدة» التي ذكرتها.. بعض

القصص ناوشت هذه المحطة القصيرة والصعبة أيضاً في «أحوال الديار» وهي القصص التي منحت من الكتاب رحيق تقنيته الأخيرة في كتابة القصة لو لاحظت «الوانيت» قصة في أوائل المجموعة.. لاستطعت أن ترى ملامح استراتيجية كتابتي القادمة وما أريد قوله باختصار.

(٣١) – سأقول لك ما قاله الشاعر الجنوبي «أنت عاصي وأنا ما شفت في غامد عصاة» وفيك من القسوة ما يشبه أحد أبطال قصصك «على ابن القاسي» ومع ذلك سأقول لك.. لقد وصلت روايتك للمثقف السعودي والعربي وترجمت بعض أعمالك للغات أجنبية واحتفت بك عدة منابر و اثني الروائي صنع الله إبراهيم على تجربتك واحتفت بها الروائية أحلام مستغانمي والناقدة فريدة النقاش وكتب عنها الدكتور محمد الشنطي الكثير وقال الناقد السعودي عابد خزندار أن رواية «الوسمية» ترتقي إلى مصاف العالمية، وقرأها وعرض لخصوصية تجربتها العديد من أبرز النقاد في المملكة مثل الدكتور معجب الزهراني، بينما أعرب آخرون عن رأي مغاير فقال القاص جار الله الحميد رأياً مخالفاً مفاده:

لو أن كتابة الرواية بهذا الشكل لكتبت عشرات الروايات، وقال الناقد محمد العباس: لا نستطيع مقاربة روايات عبدالعزيز مشري بمعزل عن مرضه ولذا فقد تحفظ في الإفصاح عن رأيه.

وقال عبد الرحمن المجماج: إنه لا يعترف إلا بمجموعتك «موت على الماء»

كيف تقرأ هذا الآراء وماذا تعني لك ؟

• إذا كان هناك فضل لأسفاري في المدن فإنني أدين لهذه

«القساوة» التي تسميها بالكثير من المديح ولكنني قاس بألفة وحميمية عميقة، لقد كانت القسوة ضرورة لمقاومة ما هو أشد عنفاً تجاه الذات رغم ما وجدت من حب الأصدقاء واحتفاءهم الكثير مما ساعدني على تجاوز الصعاب.

أما بالنسبة لآراء الآخرين فلا بد من استيعاب كل الآراء بصدر فسيح كفساحة السهول بين الجبال السروية ولعل من طبيعة الأشياء في الحياة.. أن يتفق ويختلف الناس حولها، ويسعدني أن اسمع رأياً مغايراً فيما أكتب.. متمنياً وبحرارة أن يكون ذلك واضحاً ومبيناً القوائم التي قامت عليها تلك الآراء أو الملاحظات.

مثل ما قاله الأخ القاص «جار الله الحميد».. قرأته مره في حوار (قال عنه حاضروه) أنه كان حواراً مستفزاً.. فقال عن «الوسمية» وقال أشياء أخرى في آخرين لا ناقة لهم ولا جمل.. كنت أتمنى بعد أن أخذ القول مداه في الصحافة وبين المثقفين لو أنه أبان سبباً مهما كان بسيطاً، فربما يفيد بصورة أو بأخرى، لكن ما حدث لأن الأخ «جار الله».. أحب هذه النغمة ولم يتفضل بإيضاح أي وتر من الأوتار تتم عليه النغمة، ثم إن هذا القول مضى عليه وقت يبلغ فيه الآن أو يكاد عشر من السنين وليست واحدة ولم يكتب شيئاً من التحدي.. أقول: «جار الله» القاص الفنان له أهواء مزاج الفنان ولا يمكن أن نعتبر هذا رأياً، مع أمنيتي الصادقة لو أنه عرض أو فند ما قاله.

عبدالعزيز مشري.. كاتب له حق الخطأ والصواب وليس منزهاً وإذا كانت رواياته لا تستثير الآراء الإيجابية والسلبية.. فقد يعني ذلك أنه خسر أهم ما يطمع إليه وهو خلق السؤال بما يكتب.

الأخ الكاتب «محمد العباس» وهو كاتب نقرأ له نقداً أو قراءات

جيدة في الصحف ولا أذكر أنني قرأت ما قال غير أن الحقيقة التي قالها في شأن الكاتب الذي لا يمكن تجزئة شخصيته إلى معازل هذا صحيح جداً إلى حد أن الروائي لو كتب خارج طفولته.. فلن يتبقي له من رصيده الإبداعي سوى رصف لغة وتعميدها بالثقافة.. الدهشة الطفولية الجميلة سواء كانت عن طريق الذاكرة أو التاريخ المرجعي لعمره بشكل عام لن يكتب سرداً من عقله ووجدانه وتجربته.. «لا يمكن عزله عن المرض».. نعم.

ولكن هل «المرض» هو الذي يكتب ؟ لا أحد يظهر هذا وإنما على الكاتب أن يكتب بواقعيه، وقد استفدت فعلاً من هذا الجانب على الصعيد الشخصي والإبداعي.

أنا – حقيقة – لست فخوراً بظرفي الصحي لأنه لا أحد يحيا معايشته اليومية إلا «أنا» وهو من أكبر المعطلات في حياة أي كاتب ولا يمكن أن يكون محفزاً أو دافعاً للكتابة.

«موت على الماء» ليست أحسن ما كتبت – على الأقل في رأيي – ليس ثمة ما هو «افعل».. هناك زمن وهناك إنسان وهناك تطور طبيعي للمثقف «موت على الماء» مضى عليها عشرون عاماً.

(٣٢) – في كتابك الهام «مكاشفات السيف والوردة» استطاعت الوردة بانتمائها للحياة أن تحول السيف إلى قلم مطواع كتب خبرة وتجربة واحد من أبرز مبدعي وكتاب المملكة المعاصرين ونحن في هذه الأسئلة لم نتعرض لكثير من القضايا المهمة التي كتبها «سيف الوردة» أو «وردة السيف» ولكننا سنسأل: أتراك قد أنطقت خبرتك الإبداعية والمعرفية كاملة فيه أم أنك ستكتب أخا أو طفلة له في المستقبل، يعارضه أو يجادله أو يضيف إليه أو ينفيه جزئياً أو كلياً، بحيث تختفي منه بعض

الآراء القطعية في الكتابة والإبداع والتي تبدو وكأنما السيف قد خاتل الوردة وكتب ذاته بحد السيف؟

• في كتاب «السيف والوردة» عمارة محدودة النوافذ لعل نوافذها بعدد فصول الكتاب تفتح تلك النوافذ درفاتها للشمس والهواء مهما كانت قوة النور الخارجية.. لا تستطيع أن تكشف كثيراً من الغرف والدهاليز التي تزداد إتساعاً مع الأيام.. العمر.. التجربة.. التطور والتطلع وبالتالي من الصعب اعتبار الكتاب المذكور حاوياً لكل ما أريد قوله.. وهو ليس بـ«سيرة ذاتية» كما أسماه الناشر «نادي أبها الأدبي»، إنما هو نوافذ أطل منها كاتبها لينقل بعض آرائه عبر تجربته ورؤيته ووعيه.

لا أجرؤ على القول بأنها تعني اليوم أو الغد.. ففي الحياة أشياء ومواضعات وأحوال لا تأخذ صيغة الثبات.أمور متناثرة تحتاج إلى أن تقول فيها رأياً مع أو ضد واقع اليوم وحالات وتطورات اليوم.. وبالطبع.. فإن التجربة هي التي تسوق المبدع نحو اكتشافات جديدة لم يكن ليعرفها من قبل مع أنه قد يكون موهوباً بأنه سيجني ذات الثمار التي قطفها من شجرة الكتابة في الزمن السابق.. مهما كانت الضمانات لا يستطيع أحد ضمان ذات النتيجة..

ربما فكرت وفكرت فقط.. في البدء بكتابة «مكاشفات «من نوافذ جديدة لم تفتح في «مكاشفات السيف والوردة» لم أفكر في كيفيتها و لا طريقة عرضها أو نوع تجاربها و لن تكون مكملة لما سبق.. ولا أظن إلا أنها ستكون ثمرة للتجربة الشخصية.. لعل الأيام – بإذن الله – تتهيأ ولو أن المرء يقتات أنفاسه من عمره لكننا نحلم ونطمح ونفتح أشرعتنا للحياة.. لزهورها.. التي ستزهر في الغد وسيأتي

المطر الذي ينتظره «سعيد الأعمى» في أول فصل بـ «الوسمية»

(٣٣) – يا صديقي الجميل.. ويا صديقي الصلب بقيت لدينا بعض الأسئلة..

• أما أنا فليس لدي أي مزيد من الإجابات.. لقد اشغلتني بأسئلتك وطاردتني بها في بيتي ومكتبي وعلى الهاتف وبالفاكس وهذا مدخلي عليك.. تفكني من شرك!

هل غضبت ؟

• إلى أقصى درجة.

سأذكرك بحكاية «أبو نواس» والمزارع الذي استعان به.. وما حدث بينهما بشأن الثيران و» عدة «السوق ونزع المياه من البئر وأسالك هل ننفذ ما اتفقنا عليه في بداية الحكاية من عقاب لمن يغضب؟

• نعم.. فهو أهون لي من اسئلتك.

هل تحلق شواربك ؟

• ولتقطع «براطمي أيضاً»

إذن لقد بلغت استراتيجية هذا الحوار مداها – حسب كلمتك المفضلة – لذا أقول لك في أمان الله يا سعيد!

• أهلك مطروا.. والله يوجه لك يا غلّتي..».

أجرى الحوار: علي الدميني

في أواخر يونيو ١٩٩٩ م

• نشر هذا الحوار في عدد من الصحف المحلية، وفي كتاب «إبن

السروي وذاكرة القرى» الذي صدر في يوليو من عام ١٩٩٩م، كأول عمل في سلسلة إصدارات مجموعة «أصدقاء الإبداع – أصدقاء عبد العزيز مشري».

وهذه النسخة هي الأكثر دقة لنقل ذلك الحوار إلى القراء !





الوسمية

تأليف

عبد العزيز مشري



دار شهدي للنشر

جاءت الرياح الموسمية

فاستيقظت الفرحة، وجهز أحباب الأرض وسائلهم للوسمية...

فيها: موسم المطر ،

وفيها: موسم الزرع ،

وفيها نتاج ما يفلحون، وما يعرقون.

(١) انتظار

• لم يكن الملل قد بدا على وجه «العم سعيد» واضحا، بأي شكل من الأشكال.

سوّى من قعدته. رد أطراف جبته البيضاء حول ركبتيه، وراحت أصابعه تلاعب كتلة جبته الصوفية.

كانت عيناه تتحركان.. هنا، وهنا، وهناك..كانتا زرقاوين رماديتين، يحفهما بياض أغبر، لا صفاء فيه.. تطوفان، ولا تبصران.

قال:

- الله يكفينا شر هذا الزمان.. إلى متى ننتظر ؟!

وسكت !

كان القاعدون معه يغوصون في معان كثيرة للانتظار. راحت تصوراتهم في البعيد، تعدت معنى الانتظار، واستوت جميعها عند سقوط المطر، مطر «الوسمية» المحتجب في هذا الزمان.

«حميدة»، بعد ما ورثت أباها، ويتّمت على بنتيها، وأمها العجوز، بعد ما مات زوجها.. بعد ما أصبحت تعول البيت..

بعد ما نظفت أراضيها، الزراعية القليلة، من الحصى، و أقفلت الطريق - حتى يجيء الزرع ويحصد - وتفتحها:

تنتظر، مع المنتظرين. ولكن بعيدا عن مجلس الرجال:

(والله.. ما هي ضعيفة، ولا قليلة عقل أو حجة.. ولا من واحد يقدر يقرب من حقها. لكن للحرمة حدودا !)

** ** **

اخرج «أبو جمعان» علبة الصفيح.. بحجم الكف.. مملوءة بالتمباك الأخضر.

ضغط بإبهام يمينه في وسطها من قدام. قالت العلبة الفضية: «طق».

في غطاء العلبة، من الداخل، دفتر صغير، خفيف مثل عش العنكب، أبيض كما البفت.

يمسكه مشبك، من وسطه، ولا يتركه يختلط بالتمباك في بطن العلبة:

«ورق الشام.. ورق ممتاز»

انتزع «أبو جمعان» ورقة واحدة، فركها بين أصابعه كما تفرك الدراهم، حطها على جنب.. مد الإبهام والوسطى، وغرز السبابة من يده اليمين، وسحب بقبضة الأصابع من التمباك الأخضر.. حطّه في راحة اليسار، وهرس بأطراف أصابع اليمين.. لملمه.. أخرج منه العيدان الكبيرة.

حشا الورقة البيضاء بسبابته، فامتلأ بطنها مثل بطن الحبلى.

(تمباك أخضر.. ريحته تجيء بالعافية)

لفها.. مرة.. مرتين. أقامت عودها.. على حافة الورقة الممدودة.. مرر طرف لسانه مرات، وظهر اللعاب واضحا في طرف الورقة.

مسح عليها بأصابعه. مال برأسه راضيا عنها، وجمع رأسها المفتوح مثل زهرة اللوز.. رفعها على مهله، حطها بين الشفتين.

أخذ علبة الكبريت «أبو شعلة الأصلي».. نزع عودا واحدا حك

به في جانب العلبة فقال: «تشخط».

ولعها.. خرجت ريحتها، تدخل الدماغ..

حديث الجماعة يدور، النظرات تدور، وفناجين الشاهي تدور.

كان «أبو جمعان» يختزن كل الكلام الذي دار، وقال:

- «فرج الله قريب.. يا سعيد».

ملأ جوفه من فنجان الشاهي: (فنجان شاهي ما يحب غيره «عقال فيصل» في أسفله نجوم مزخرفة، بين فجواتها سواد، أما فنجان «ساق سلوى «فللأولاد والنسوان.. كله بخط ذهب في أعلى الفنجال، «لكن هذا شيء.. وهذا شيء»).

مد «أحمد بن صالح «يده تجاه «أبو جمعان»..كانت ترتعش، ترتعش حتى وهو ساكن، وقال:

- «يا رجال.. هات ورقة من التمباك اللي قدامك.. وخلوها على الله، فلو حسب الزراع ما زرع !».

وفهم «أبو جمعان»: «سيجارة محشوة بالتمباك، جاهزة مجهزة للتدخين، ملفوفة وخالصة».

ضحك القاعدون، كلهم اشتركوا في قهقهة خفيفة.

سُمِع صوتٌ قوي من الخارج.. في الصوت نحنحة:

- «يا أهل البيت.. يا بو صالح».

تململ «أبو صالح» في جبته الصوفية الحمراء الطويلة.. جاء رده مفزعا للهدوء المختلط بالقهقهة:

- «أهله الله.. تفضل».

وأضاف:

- «البيت بيتك».

قبل أن يدخل «مسفر القصير» ضرب على الباب الخشبي نصف المفتوح.. ضربات وراء بعضها.. خلع نعليه الجلديين، و دخل بجسمه وصوته:

- «السلام عليكم».

رد الجميع:

- «وعليكم السلام».

تواسعوا، عرض كل واحد من القاعدين أن يقعد بجانبه.

قعد إلى جانب «أبو جمعان».. متربعا معهم، على فراش الخوص العريض، بعد سكوت قصير قال:

- «كيف حالكم يا جماعة ؟».

قال «أبو صالح»:

- «كلنا مثلك.. ما فيه غريب.. ننتظر الوسمية وفرج الله قريب».

سأل «مسفر القصير»:

- «طيب.. أيش تتوهمون بعد صلاة الاستسقاء ؟».

شابك العم سعيد الأعمى بين أصابع يديه، وقال:

- «يعني.. تحسبون الأمـر اللي جـاء مـن عند الملك بصلاة الاستسقاء..

خلاص.. المطر يطيح ؟ ! ».

قذف «أبو جمعان» بعقب السيجارة من الشباك إلى الحوش.. مصمص شفتيه، وقال:

- «لو أراد الله بالمطر.. ما يأخذ رأي ملك، ولا غير ملك !».

قام العم سعيد الأعمى. توكأ على عكازه الطويل.. تساءل إن كان الوقت عصرا كما يحسب !

رد «مسفر القصير»:

- «سمعت قبل ما أجى راديو الرياض يؤذن».

قال العم سعيد الأعمى:

- «يعني قبل نص ساعة ؟!».

قال «مسفر».

- «منها.. وحواليها.. بيننا وبين آذان الرياض نص ساعة».

جاء ولد بإبريق فيه ماء.. صاح بخجل:

- «الماء.. يا عم سعيد».

أخذ بيد العم سعيد.. تركه في الساحة: يبول ويتوضأ.. بعدها يجيء.. يأخذ بيده إلى عند المسجد.

استوى الجميع، من توضأ، ومن كان متوضئا.

قال «أبو صالح»:

- «يا جماعة الخير أذّنت، وما جاء الفقيه !».

قال «مسفر»:

- «توكل على الله.. تأم بنا».

صلى بالمصلين.. سلم على ملائكة اليمين واليسار. قال وهو يمسح على لحيته القصيرة:

- «قولوا معي بحق طهر هذى الصلاة:

اللهم أغثنا.. غيثا كريما.. انك الكريم الرحيم».

قالوا كلهم: «آمين».

انقضت الصلاة وخرجوا من المسجد..

فرَد «أبو جمعان» عمامته في الهواء.. رفعها بقوة وهوى بها. قالت العمامة: «صك».

برمها برمتين، لفها على مهله فوق رأسه:

(نظيفة.. طاهرة.. تصلح سجادة.. تصلح لفرك العين.. لا تلمسها اليد، وفيها ريحة تمباك).

(٢) تمطر وسمية

• جرى خير.

توزع بالقيل والقال.. من بيت، إلى واد، إلى جبل (بنت حميدة جاء لخطبتها شاب من قرية «الجبل»).

امتلأ سمع البنت بالخبر الجميل، والثقيل.

أخرجت أحسن ثوب عندها.. «مخيّط بالتطريز».

في الصبح تمشط شعرها.. في المساء تمشط شعرها.

قالت «حميدة».

- «يا بنتي.. لازم تقعدين في البيت، مع جدتك، ومع أختك الصغيرة.. أنا، الله يعينني.. أشوف شغلي في الوادي والزراعة!».

قالت في إحدى قعداتها، قدام الحريم:

- «بنتي بعد.. صغيرة، وأحتاج لمعونتها.. لكن الخطاب كثروا».

قالت واحدة:

- «الناس يطمعون في حق اليتيم!».

قالت واحدة، لها دراية بالخطاب:

- «البنت جميلة.. تستاهل.. ماهرة».

و واحدة قالت:

- «نصيبها جاء.. إلى تحت قدميها».

لم تعد بنت حميدة تقدر على الخروج كثيرا.. لكن أمها لم تمنعها من «الاستقاء»:

(لا يشارك في الاستقاء إلا البنات المدركات.. قوة وتصرفا).

الدلو، لما يكون مملوءا بالماء، يحتاج إلى عضل يشده، وإلى عضل يرفعه، ويصب ما فيه من ماء في القربة المصنوعة من جلد الماعز النظيف ،المطلي بالقطران الأسود. قرب كبيرة.. وقرب صغيرة.. على قدر من يشيلها من النسوان والبنات. تسرح القربة فاضية.. تروح مليانة بالماء.

قالت «حميدة»وهي تمسح بطرف «شرشفها» على وجهها المدهون:

- «شباب هذا الزمان مدلع. ما فيه تعب وراء الدراهم..

واحد يسافر إلى مكة.. وواحد متعلم يشتغل في وظيفة..

يلبسون ثياب بفت بيضاء، وعمايم نظيفة..ويشربون الدخان من «أبو بس»»

وأضافت:

- «الله ما يعطي خير من الأرض، وخير من ورق الدراهم!».

ومر بقناعة حميدة بأن بنتها ستروح إلى بيت خير..تحت بطن شاب يشتغل بالوظيفة..بنتها الصغيرة ستكون لها حياة طيبة.. يجئ

وقت كل شئ يشتغل بالكهرباء، ليستريح البني آدم.

** ** **

مضت أيام طويلة وقاسية ومحاطة بالجفاف، تحولت فيها كل آمال الناس إلى رجاء حار يستعطف رحمة السماء. أخذت النساء يتصدقن بملابسهن القديمة. أخرج الرجال حب الذرة المكنوز في بيوت مؤنتهم، فجعلت منه زوجاتهم طبيخا لذيذا بالملح والبهار، وقدمنه في الغذاء والعشاء.

** ** **

قالوا، بعد صلاة الجمعة، إن سبب الجفاف.. قلوب الناس ممتلئة بالحقد وبالضغينة ولا يظهرونها. رأوا أن يقرأوا «الراتب» خلاصا وتطهيرا للقلوب.. اعترض البعض بأن «الراتب» لا يقرأ إلا عندما يكون في القرية خائن أو مخرب لم يعترف بذنبه، حينها تجب قراءة الراتب (الفاتحة وبعض الدعاء بأن ينتقم الله منه أمام الجماعة في يوم أسود لم يكن يحسب له حسابا)

قال الفقيه:

- «يا جماعة الخير.. نقرأ الراتب والأعمال بالنيات!».

هبط سكون احتل ساحة المسجد. نظروا وهم جالسون إلى الأرض وتمتمت ألسنتهم بالفاتحة... ثم قالوا جميعا: «اللهم آمين». وتفرقوا إلى شؤونهم.

مر أسبوع بثقله ومرارته. جاءت الجمعة وفي المساء بعض غمام. وهبت رياح جافة وخشنة في أحيان كثيرة.

قالت الناس:

- «ربنا كريم».

وصلى بالجميع الفقيه، من نفس كتاب الخطب. .يتنقل بين أبوابها: (يعز الله الإسلام والمسلمين، ويحمى حوزة الدين، ويدمر اليهود وأعوانهم من المستعمرين، ويجعل الله ولايته فيمن خافه واتقاه، وينصر الحاكم ومن والاه).

عقبها خرجوا من المسجد، والأولاد يزاحمون الكبار بحرج وبغير حرج. لا يفقدون أو يتغالطون في أحذيتهم المتناثرة مثل السحالي أمام باب المسجد. .اقتعدوا الساحة على هيئة دائرة.

لمحوا شابا غريبا عنهم. .وظهر شيخ في ثياب بذل في تنظيفها جهدا كبيرا. خرج من المسجد متأخرا قليلا. .قال بصوت خشن فيه جهورية حادة:

- «لا. . إله. . إلا الله».

ثم قال وهو يلمح الدائرة:

- «النظر سلام يا جماعة».

جاء الرد جماعيا متساويا:

- «وعليكم السلام».

قال:

- «يا جماعة الخير: العلم خير. إحنا إن شاء الله عندنا عروس يوم الخميس القادم. وما نستغني عن وجوهكم الطيبة تحضرون. .البنت

بنتكم والولد ولدنا، والبيت بيتكم.. والله يحييكم».

فكروا:

(الشيخ الذي عزمهم، من القرية المجاورة.. هو أب الشاب الموظف الذي تقدم لخطبة بنت حميدة).

كلمة سيرد بها الشيخ على الدعوة الطيبة، الكل ينتظر إعلانها.. استقرت كل العيون فوق رأس الشيخ.

على مهله مسح جبينه بكفه اليمين، ورفع عمامته من فوق جبينه إلى فوق عقاله.. وقال:

- «الله يحييك. البنت بنتكم والولد ولدنا.. والله يعينك باليسر».

قالوا:

- «أبشر بنا كلنا صغير وكبير».

** ** **

انتشرت غمامة مثل الكحل..تبعثر شيء من الرذاذ الخفيف، وتصايحت الناس بحب وحذر:

«أبشروا.. أبشروا».

قال العم سعيد الأعمى لزوجته:

- «أسمع صوت في الخارج».

ردت بطمأنينة: الناس يلملمون دجاجهم ودجائنهم.. السماء غائمة هنا وهناك «رشاش».

سألها إن كانت قد غطّت فتحة السقف..فلن تعطى شيئا من نور النهار..الغمام يمنع النور..وقالت بشيء من التذمر إن كلامه كثير، ووصاياه لا تنتهي.. وهذا شأن العميان.

حاولت إقناعه.. فتحة السقف يجب أن تكون نصف مفتوحة من أجل دخان النار. لكنه رد عليها بغضب..المطر يقتحم الفتحة إلى داخل البيت ...وأكد أن المطر عندما يطول امتناعه عن الهطول.. ينزل شديدا قويا، وربما نزل برد..

قطع ثلج مثل ثمرة اللوز.

جاء الصوت من الخارج:

- «يا أهل البيت.. يا سعيد ؟!».

على طول.. رد «سعيد»:

- «أهله الله.. تفضل».

وأضاف بود وابتهاج:

- «أدخل بحذيانك».

قال «أبو جمعان» وقلبه يهتز من الفرحة:

- «أبشر يا سعيد.. السماء أفرجت عن خيرها».

وقال:

- «تعرف يا سعيد.. الفقيه كان صادق يوم قال اقرؤوا الراتب».

استحسن «سعيد» قوله:

- «أي والله.. صادق».

خرجت زوجة العم سعيد من الداخل.. كانت تلبس جبة حمراء بفتحة.. قدام الصدر. تحيط بكل جسمها من فوق السرة ومن وراء الجانبين.. بنص كم.. بكتلتين طويلتين من الصوف المصبوغ بالأحمر.

قالت:

- «كيف حالك يا أبو جمعان».

وأضافت:

- «موت من ماء.. ولا موت من ظمأ».

قال «أبو جمعان» ووجهه كله يلمح فيها:

- «كيف حال عيالكم من البرد ؟».

قالت: «برد هذه السنة كان صعيب».

كل سنة يقولون إن بردها صعب. الأولاد يتناوبون في السعال.. لكنها تحرص على أن تجبرهم على شرب الجنزبيل مع الشاهي الذي يحبونه. تطحن الجنزبيل في «المهراس» وتمزجه بالشاهي، ويغلي على النار.

قال أبو جمعان لما استحسن الفكرة:

- «أيوه صادقة. ولو تركتيه على النار أكثر. بيطلع أحسن».

كان العم سعيد الأعمى يتوقف عند كل وقفة في الكلام يتوقفها أبو جمعان:

- «آها.. آها.. آه».

عند كلام زوجته ينصرف. يريدها أن تنتهي من الكلام، ليأمرها بفعل شئ.

قال:

- «اسمعي يا مرة»...أكمل بعد قليل:

.. «ودنا بدله قهوة من اللي يبغيها قلبي».

استدارت لتحضر عدتها.. وهي ماضية لمحت فتحة السقف. تأكدت من أنها أغلقتها بصحن النحاس. يستحيل على المطر أن يخترقه أو يتسرب منه.

قال العم سعيد في دعوته لأبي جمعان:

- «اقترب هنا من صهد القبس».

رد «أبو جمعان»أنه قريب منها. وأكد قوله بوضع كفيه الدافئتين جدا على يد العم سعيد الأعمى. قال:

- «الدفا نص المعيشة».

وقال:

- «وصاحب المثل يقول أدفينا وعافينا».

استطاب العم سعيد قوله. علق:

- «يقول القدامى إذا جاء الدفا جاءت العافية».

غمس «أبو جمعان»يده اليمنى في جيبه حتى غابت، بعد حركة

تفتيش قصيرة، أخرجها ممسكة بعلبة التمباك الفضية، وضعها على ركبته اليسرى. لم يفتحها بعد.

جاءت زوجة سعيد الأعمى بدلّة القهوة.

خلطت كل تراكيبها. ملأتها بالماء. وضعتها بهدوء على الكانون. النار تشتعل وتنفث دخانا أزرق يلهب العيون بحرارته. حيث استقرت الدلّة.. نضح منها قدر ضئيل على الجمر، فقالت: - «طش».

تفرعت رائحتها مع البخار الذي اختلط بدخان النار.

قبل أن يدخل «أبو جمعان»في مشروع توضيب السيجارة، رفع العلبة الفضية من على ركبته.. وفجأة دوى صوت قوي. قوي. اقتحم دويه الآذان. قرع في القلوب.

في ركن البيت يلعب الأولاد لعبة «القطرة»، ست نقاط مخططة على كف من خشب.. خطوط ثلاثة.. وثلاثة.

جاء صوت الرعد عظيما رهيبا ونذيرا بالخير والفرج.

قال كثير من الناس: «يا كريم».

(ماء كانت تنتظره الأرض، وينتظره الناس، وينتظره الرجاء الطويل، والدعاء المعلق بالأمل، وصلاة الاستسقاء،والمرسوم الملكي، والبهائم التي جاعت إلى الكلأ).

وضع «أبو جمعان»علبة التمباك مرة ثانية.. قال: «يا كريم».

قال العم سعيد الأعمى: «يا كريم».

قالت زوجته: «يا كريم».

قال الأولاد لبعضهم: «استغفر الله.. استغفر الله».. خافوا من الصواعق.

بقطعة قماش بالية محشوة بالخرق البالية.. قبضت زوجة العم سعيد الأعمى على عروة الدلة من خلفها.. وضعتها على طرف الجمر.. أحاطتها بركام الرماد الحامي.. كانت الدلّة تتفايض من تحت قبتها النحاسية.. تشبه قبة المسجد الكبير.

تناولت فنجانا من الفناجين الصيني البيضاء المنقوشة.. ملأته إلى نصفه بالقهوة. عامت على السطح قشور حب «الهيل» وبعض شعيرات الجنزبيل.

(الدلّة في اليد اليسرى، واليمنى تمسك بالفنجان)

ناولت «أبو جمعان». تناوله حتى استقر بين أصابع يده اليمنى. بتركيز، قدمه للعم سعيد الأعمى وقال:

- خذ يا سعيد.. عندك قهوة.

كان العم سعيد يدرك أن فنجانا واحدا قد صبت القهوة فيه. قال:

- «عندك.. يابو جمعان».

بعد إصرار من «أبو جمعان» تناول العم سعيد الأعمى الفنجان، أخذه قليلا.. قليلا، لامس شفته السفلى.. رشف منه رشفة.. سمع صوت فنجان آخر تصب القهوة فيه.. وفنجان ثالث.

قال بهدوء:

- «القهوة ما تصنعها إلا يد تعرف».

قالت زوجته:

- «اشرب.. بالعافية».

قال «أبو جمعان»:

- «قهوة تستاهل الكيف».

قدم «أبو جمعان» فنجانه فارغا لزوجة العم سعيد الأعمى.. لم يضع أصابع يده اليمنى على رأس الفنجان.. حتى تنتهي الدلة.

تناولته. انهمكت في ملئه. كانت علبة «الكيف» قد قالت «طق» بضغطة خفيفة من إبهام «أبو جمعان»..استل ورقة واحدة من دفتر «ورق الشام»، وبدأ في توضيب سيجارة.



(٣) بنت حميدة تتزوج



• قطرت أشجار الطلح، و العرعر، واللوز، و الحماط، بالماء. تنازى القطر على جذوعها، وتحتها.

كانت جرداء.. وكانت طرية.

طلعت الشمس صافية.. دافئة.

أوقدت القبس وسط الساحة. عند آخر بيت، في الطرف، جاء الأولاد، تحلقوا حول ضارب الطبل الذي قعد يحمى أديم الطبول. ضرب برأس عصاه النقع.. قال الطبل: «طن»، وضرب: «طنطنطن.. طن.. طن».

واحدا.. واحدا.. نزل أفراد الجماعة. من هذى القرية وهذى القرية كلهم ملابسهم نظيفة.. وعمائمهم نظيفة.

قال «أبو جمعان» للأولاد:

- «يا عيال.. رصوا.. رصوا.. وإلا وسعوا عن الرجال».

قال ولد:

- «تحسبنا يعني ما نعرف نعرض ؟».

قال واحد:

- «كما الرجاجيل.. رصوا.. اثنين اثنين».

جاء الشيخ.. جاء الفقيه.. وقفا عند أول الدائرة.. يلبسان

«مشالح». على رأسيهما عقل سوداء.

اكتملت الدائرة.. حمى قرع الطبل، ونظم. رفع «العراضون»: القدم اليمين.. القدم اليسار.القدم اليمين..القدم اليسار.

(كان منهم الذي يحمل بندقية أو سيفا أو خنجرا أو مشعابا)

توسط دائرة العرضة شاعران من الجانبين. امتدح الأول كرم وحسن الضيافة في الجانب الثاني. رفع الراقصون في العرضة أصواتهم.. ترديد طويل خلف الشاعر، من هذا الجانب، ومن هذا الجانب:

«يا لال..لا لا له.. يا لال..لا لا له».

دورتان اثنتان ورائهما اثنتان.. رفعت الأقدام اليمنى.. فاليسرى. فاليمنى.. في مكان واحد. ووقفوا ينصتون لقول الشاعر:

«يا لال.. لا لا له.. يا لال لا لا له..... وانحن أن شا الله بنهزم روسية».

قبل أن يدوروا على الكلام.. نزل شاعر الجانب الثاني، توسط الدائرة.. رد على الرد:

«ما ضرينا بلقص القذ حتى نحارب روسية».

فهم العراضون:

(ما تعودنا على قرص البرغوث!).

فهموه. بألغازه البعيدة.

لم يرمِ واحد منهم برصاصة بندقية واحدة. قرار الحكومة..

والأحزمة مشدودة على الوسط.. منضدة بالرصاص.

جاء أب العريس.. في يده دراهم، قسمها بالتساوي، بين الشاعرين.. انتهى كل شيء قبل آذان المغرب.

كانت النساء على سطوح البيوت (يخيلن العراضة).

نزلن من الدرج والسلالم القصيرة، حاملات أطفالهن. اجتمعن على العشاء في بيت العريس.

(لا يجوز، أبدا، للرجال والشباب دخول مجلس النساء..عادة كانت قديمة. قال المتعلمون إنها حرام وعيب، ومعها عادات كثيرة يحرمها الدين!).

بعد قليل تقدم أربعة رجال. كل رجل يحمل صحنا كبيرا يتناثر باللحم والارز.

دخلوا من باب مجلس الحريم الكبير. هجدت الأحاديث، وبكاء الصغار، وكلام العجائز والبنات.

كان فراغ المجلس يفيض برائحة البخور والأنفاس. امتلأ وفاض.. كما لو أنه فرن فيه نار ملتهبة.

لما تقدم الرجال لم يلتفت واحد منهم إلى واحدة.

امتدت أيدي عدد من البنات.. كن بالقرب من مقعد العروس.. (المقعد تجلس عليه العروس، أما العريس فلا مقعد ولا مكان له بين جمع النساء).

قلن لها: - «هيا قومي.. العشاء نخاف يبرد».

وجب على العروس أن تبدأ.. قالت حميدة، بصوت جهوري، لكل الحاضرات:

- «تفضلوا.. الله يحييكم».

قال الناس إن أهل العريس تجملوا، وكانوا كفؤا للنسب:

(أول ليلة ذبح ثور سمين، طبخوه جيدا.. يأكل منه اللي ما عنده سنون. وصبح اليوم الثاني ذبح أربعة خرفان.. وطاسات سمن بقر.. وكيسين من الطحين.. واقراص. ذبح ثاني ليلة اثنا عشر خروفا.. كلها سمينة، غطت كل الحاضرين.. رجال ونسوان. طول الوقت: قهوة وشاهي.. قهوة وشاهي).

بعد ليلتين من الصخب والضجيج، ورائحة الدسم تملأ الركن الكبير من حوش البيت، تغطي الحوش والدار والدور الملاصقة.. جلس أب العريس يعد الدراهم.. تقدم بها المهنئون صبيحة اليوم الثاني.. وجدها ألف ومائتي ريال.. لفها في صرة من القماش المزهّر.. ناولها لزوجته وأوصاها بحفظها في صندوقها إلى جانب صكوك وثائق أراضيه الزراعية الصغيرة.

(٤) مصلح الدوافير

• خلت البيوت من أهلها. بقي العجائز والمريض والطفل، وبقى العم سعيد الأعمى.

هاجت الوديان بالناس والمواشي والحمير. هبوا جميعا وانتشروا يفلحون الأرض، وينقونها من العشب والحجارة، والأعواد الصغيرة، وزلل المطر.

الأرض لدنة، رخوة. رائحة الطين، من بعد جفاف، تملأ الجو.

نزل الجميع بملابس تصلح للعمل

كلهم نزلوا.

(الجزار الذي يشتري المواشي، ويذبحها، ويبيع لحمها. والصانع الذي يصنع من الحديد المحراث والفأس ومفصلات الأبواب.. وكل قطعة حديد.. لا ينزلون الوادي بعد المطر).

كانت الأودية تقرع أصواتا متماثلة:

«هيه..هيه.. هوه.. آهاه».

خلف ثيرانهم.. الناس يعملون. يحين وقت القيلولة والغداء. يربطون ثيرانهم وحميرهم في جذوع الشجر. ويتغدون تحت فيئها، ويشربون القهوة الممزوجة بحب الهيل والزنجبيل، ويشربون الشاهي.

يجلس «أبو جمعان»، متكئا على مرفقه، تحت الطلحة.. وقتا للف التمباك، والاستمتاع بكيفه.

** ** **

مرت أيام سبعة وثمانية. بذروا الشعير والقمح والعدس في أديم الأرض، غطوا عليها بالتراب الندى بالمحراث. قعدوا زمانا يعدون فيه الأسابيع ، حسب التنجيم وإحصائيات النجم البادر ونجم الثريا، وكم بقى على سقوط مطر ما قبل الحصاد.. مع دعوات لا تحصى في ان يرعى الله ويبارك.

قال العم سعيد الأعمى لابنه الكبير حمدان:

- «بذرت كل البلاد ؟».

أجابه ابنه، وهو يسل قدميه من الطين:

- «نعم».

** ** **

قال العم سعيد الأعمى في جلسة العصر:

- «يا جماعة الخير.. جاء زمان، شفنا فيه الدهر وجفافه، بعد ما صلينا الجمعة.. خرج علينا واحد من المطوعين اللي يرشدون الناس للدين الصحيح، ويعلمونهم الأصول.. قال: قعد يخبرنا.. فقال لواحد من الجماعة، هل تعرف ربك ؟!

- قال: نعم ! قال: كيف عرفت ربك ؟!.. قال بصدق نية: أعرف ربي بالفقر. وسكتنا.

قال المرشد: وما هو الدليل ؟!

وبعد ما مسك الرجل بطرف جبته قال: الدليل هذى الجبة المقطعة قدامك».

قال العم سعيد مستكملا، بعد وقت قصير:

- «والله ما أحكي لكم غير الصواب.. المرشد خجل وسكت، وما يدري ايش يقول له، والناس سكتوا. بعدها قال المرشد:

- قولوا جميعا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله..

تشهدنا كلنا.. ودعيناه على الغداء.. والغداء كان عيش وسمن.. غداء ما نحلم به في النوم.

أضاف:

- «دائما ياجي الدهر، ويروح، وربنا لطيف بعباده».

قال واحد:

- «يقولون في السيرة..أن فيه واحد سأل الرسول عليه السلام.. قال يا رسول الله.. ايش أحسن الأكل؟. قال الرسول عليه السلام: الجوع أبصر».

وأضاف:

- «الجوع ما يفرق بين طيب الأكل وبطاله».

قالوا جميعهم «صدق رسول الله».

امتد حبل الحديث.. قال واحد:

- «يقولون.. الرسول عليه السلام حزم بطنه من الجوع وما مات».

رد واحد:

- ويقولون.. الصحابة ما كانوا يشبعون.. سبحان الله !

(توافقوا جميعا على أن الجوع كافر، الدهر يجئ ويغيب وفيه العذاب بالفقر، ومن بعد كل عسر يجئ اليسر).

في حضرة الجلسة.. تجاذبوا الكلام حول أيام الشدة والفقر، وقدرة الرسول على مواجهة الجوع، والتصرف بعين الحكمة وقتما يحين الحين. في هذه الأثناء أتى أحد الأولاد بصحن دائري فوقه فناجين الشاهي.. يتوسطها الإبريق الأحمر، مرسوم على جوانبه أوراق ورد متفرعة الورق.

صاح رجل من خارج الساحة:

- «مصلح دوافير الجاز».

حدثت مطاردة خفيفة. .تفرق الأولاد حيث يلعبون في الساحة.. جاؤوا مفزوعين:

- «واحد مقاول.. واحد مقاول».

«مقاول»!

يلبس البنطلون والقميص وغريب.

خافه الأولاد.. ملابسه ما هي بمألوفة.

كان يحمل صندوقا مثل حقيبة متوسطة.. يعلقها إلى جنبه الأيسر.

جلس لإصلاح «الدافور». التمّ حوله الأولاد الهاربون.. كانوا يستمتعون بطريقته في هندسة الأدراج والأرفف. مسكونة كلها بالمفكات والإبر والجلد، وكل ما يحتاجه الدافور من غيار وإصلاح.

مد «أبو صالح» نظره قليلا إلى أن احتوى المقاول. زعق به:

- «تعال.. تفضل يا حجى» !

-

قال «حجى» ليخفف عليه من الغربة. «مقاول» شديدة.

جاء مصلح الدوافير، قال:

- «سلام عليكم ورحمة الله».

ردوا جميعا:

- «وعليكم السلام ورحمة الله».

جلس، كانت جلسته صعبة ومتعبة، على بساط الأرض وأجهد حتى استوى متربعا.

ناوله «أبو صالح»فنجان الشاهي يطفح.. قال

- «تفضل يا حجى».

قال المقاول:

- «شكرا.. شكرا».

في هدوء رد أبو صالح:

- «العفو يا حجي.. عفوا.. اسم الكريم ؟».

أجاب المقاول:

- «اسمي شعبان.. عبد الكريم».

قالوا جميعهم:

- «أهلا وسهلا».

وسأل أبو صالح:

- «من اللد.. واللا من الرملة ؟!»

(كان أبو صالح يعني سؤاله. ما هو تثقف. لكنه يعرف هذه الملامح. عاش معهم في بلادهم أربع سنوات. يحكي عن حرب ٤٨. سافر هو وولده صالح.. ومعهما ناس حفاة.. على أقدامهم. ومرة سافروا راكبين. كانوا يبغون يقدسون).

أجاب:

- «لا والله.. من غزة».

رد أبو صالح بابتهاج:

- «أهلين وسهلين بأهل غزة.. مرحبتين».

تهلل وجه شعبان. سأله كيف عرف أسماء هذه الأماكن.

أجابه «أبو صالح» انه يعرفها. و حكى له بعض جزء من القصة.

استدعى أبو صالح أحد الأولاد ليحضر الدافور الخربان. أصلحه من الجوانب التي يشتكي منها، وعالج مكان التسريب بقليل من

اللحام القصدير مع ماء النار. الجماعة جالسون يتابعون باهتمام.

الأولاد تحلقوا معجبين بالنار الخضراء.

طلب المقاول ريالا. دفع أبو صالح المبلغ، وأعطاه خصلتين من العنب الأبيض. يعرفه الجميع من كرمته الكبيرة في الوادي.

كان الأولاد قد دخلوا في صراع حول الحصول على فتافيت اللحام البيضاء الفضية. نهرهم أحد الجالسين:

- «عيب يا سفان !».

قال أحمد:

- «أنا الذي جبت الدافور.. ومن حقي أخذها».

وقال ولد الجيران:

- «يا سلام.. وأنا جبت الشاهي.. وجبت العنب للمقاول.. من عندكم».

نهر الرجل مرة أخرى:

- «فكونا من المشكلة.. قلت لكم عيب !».

نهرهم بعين حمراء، وعرفوا أنه بعدها يضربهم بالكف ... انتهى الصراع على توعدات كثيرة بينهم بالضرب والتعدي.

قال مسفر القصير، ورائحة بقايا التصليح لا تزال راكدة:

- «طيب يا بو صالح.. أهل فلسطين هاذولا.. ايش قصتهم ؟».

قبض «أبو صالح» على لحيته بكفه اليمنى، وفي بنصره كان يتحلق

خاتمه الفضي المتناسب «الختم». تطلع نحو مسفر القصير بعينين سارحتين.. كانت إحدى عينيه من الباغة. وضعها «الحكيم» بعد عملية فيها، من أعوام راحت، بعد حادثة وقعت في الوادي.. بيده وهو ينظف كرمته.

قال:

- «الله يهديك يا مسفر.. تبغي تذكرني أيام كانت الحصى خبز ! الله.. الله.. الدنيا تتغير. سبحان مغير الاحوال، يوم سافرنا نقدس.. على عهد الدراهم يوم كانت فضة.. سافرنا وما معنا إلا شوية طحين في زعبة، وعلى أقدامنا مرينا على تبوك، وتيماء، وبلاد أهلها بدو، وبلاد فيها أهلها غجر، وبلاد فيها الطيب والبطال، وما وصلنا حتى مرضنا وتعافينا، ومرضنا وتعافينا، وجينا..

الله، يا جماعة على هاذيك الدنيا.. سبحان الله.. أرض جنة.. الفواكه من كل الأشكال.. والدنيا.. والسيارات على كل لون».

قال مسفر:

- «يقولون الجنة هناك !».

واصل أبو صالح:

- «دخلنا عن طريق العقبة مع واحد بدوي اسمه.. اسمه.. الله يعطيني على اسمه.. أيوه.. اسمه غظيان.. على جمل قرحان أسود، وكان ولدى صالح بيموت من المرض.. وكان يقذف دم من الحمى.. والبدوي غظيان، الله يذكره بالخير، عمل فينا خير.. أركب صالح على الجمل.. الله يا الدنيا.. كانت بخير».

لحس «أبو جمعان» شفته السفلى بطرف لسانه، وقال:

- «الدنيا لازم يكون فيها.. أولاد الحلال».

قال «أبو صالح»:

- «نعم».

واصل:

- «دخلنا على عرب خلقتهم من أحسن ما خلق الله.. حمر.. والواحد منهم طوله قامة ونص منا.. شواربهم طويلة، وكل واحد عنده فرس تسوى الدنيا.. ولهم نسوان.. الواحدة كما الثريا... سبحان الله.. أقول لكم..!».

قال مسفر، وهو يتهيأ بكل مسامه:

- «طيب يا بو صالح..».

قال أبو صالح:

- «بتنا عندهم هذيك الليلة ،وفي خيمة واحد منهم.. جابوا لصالح جبن مملح، ودهنوا راسه وأقدامه بالسمن. قالوا لنا، بعد ما رطنوا مع بعضهم، صالح ولدك تعبان ولازم يستريح عندنا. قلت لهم.. صالح شاب.. ثلاثة وعشرين سنة.. وان شاء الله يتغلب على المرض ويخف منه.. و احنا لازم نروح للقدس بكرة عند الشروق.

وبعد ما ودعنا البدوي غظيان، وراح لأهله.. ومن صبح اليوم الثاني.. جهزوا لنا فرس.. كان معهم واحد منهم بفرسه، علشان يورينا الطريق. خرجت نسوانهم اللى كما النجوم.. قدام الرجال مختلطين.. وودعونا.. ركب صالح خلفى، على الفرس، وتمسك

بايديه في جنوبي. وتقدمنا الشاب بفرسه كما الريح.. أما أنا لأول مرة أركب خيل.. اضحكوا يا جماعة الخير».

قالوا، والانتظار على وجوههم:

- «خير».

واصل، وكفه قد بدأت ترتفع وترتخي مع الكلام:

- مسكت الرباط في يميني وهزيت الخيل برجلي.. وأبى يمشى. حاولت..حاولت.. ما فيه فايدة.

بعد قليل عود علينا الشاب بفرسه. وقال ليش ما تمشى خلفي ؟ قلت له الخيل ما رضى يمشي. ضحك منى وقال أظنك يا حجي ما قد ركبت خيل ؟!

استحيت، وقلت له يمكن خيولكم لها طريقة ثانية !!

تلمح فيه شوية، وقال وهو يضحك:

- «يا حجي، أمسك الرباط في أيدك الشمال، وهز الخيل برجولك.

وفعلا. ما مسكت الرباط في شمالي حتى انطلق الخيل كما الريح.. ورحت أشد برجولي على بطن الخيل، وقلت لصالح: توثق وامسك بجوانبي.

ما جاء بعد الظهر حتى قربنا من مدينة القدس، وتركنا الشاب هو وخيوله.. بعد ما وصاني كثيرا على صالح.. الله أكبر.. ناس الله يذكرهم بالخير».

قال العم سعيد الأعمى ويداه تلعبان بكتلة الجبة:

- «طيب يا بو صالح.. وبعدين ؟».

- «المهم يا جماعة الخير.. دخلنا.. أغراب.. أغراب في لبسنا، وخلقتنا، وزعبتنا معنا.. ودخلنا المسجد.. يسمونه المسجد الأقصى.. دخلنا ما نعرف لا زيد ولا عبيد.. لقينا ناس من اليمن وكأنا لقيناكم.. سلمنا عليهم.. قالوا لنا احنا جايين نقدس وندور على شغل. قلنا لهم واحنا كذلك. وربنا جمعنا على خير.. عشونا معهم هذيك الليلة على طحيننا وطحينهم.. سوينا عصيدة ولبن.. وكل شوية نقدم نفوسنا عند المحراب ونتلمح.. يا ليتنا كنا نصلي.. لكن كنا نتفرج على المسجد اللي فيه ناس أشكال وألوان، وفيهم نصارى ويهود.. خلقتهم باينة.. ويرطنون بدعاء ما فهمناه.

أخرج «أبو جمعان»علبة التمباك.. راح يوضب سيجارة..

قال:

- «والمهم.. يا بو صالح».

قال:

- «والمهم..

فرقتنا الأيام مع اليمنيين، ورحنا كما الهبل نتمشى في مدينة القدس وندور على شغل. قالوا لنا ناس عرب.. الشغل موجود.. واشتغلنا بقوت يومنا.. وكل شهر يعطون ما يساوي ريالين فضة.. ريال ينطح ريال.. شوية.. شوية.. وقامت الدنيا».

قال مسفر:

- «كيف يعني ؟!».

قال «أبو صالح»:

- «يجيك العلم يا سيدي.. قامت الحرب على عهد الإنجليز. كانوا يعطون اليهود السلاح والرشاشات.. والعرب ما كانوا يدرون.. كانوا يحاربون ببعض البنادق الفاسدة والعصى.. وطاح ناس كثيرين.. ما توا فى الحرب من حصد رصاص اليهود.. منهم واحد يسوى قبيلة من قرية بنى كبير اسمه عبد الله.. الله يا ذاك الرجل اللى يسوى كل اليهود.. وناس طوال اشناب من زهران وقحطان.. وياما ناس.. تطوعوا في الحرب مع العرب.. وماتوا. والله ماتوا من أول ما بدأ الحرب.. يا خسارة الرجال.. لكن المشكلة قوة اليهود برشاشاتهم وسلاحهم.. ونحن مثل ما قلت لكم.. بعضنا معه بندقية وبعضنا معه عصى.. والسلاح ما يقابله إلا السلاح».

كان فم العم سعيد الأعمى مفتوحا إلى فوق. قال:

- «وصالح.. وين راح ؟».

قال:

- «ولدي صالح.. كان بعيد عنى.. وكنت خايف عليه.. لكن الرجال اللي طاحوا نسّوني ولدى.. ونسّوني الدنيا.. وشوية الرحمن..ما حسيت إلا وانا طايح على جنبي الشمال ،والدم يخر.. نسيت نفسي.. وبعد أربعة أيام صحيت في مستشفى عمان، وعندي ناس كثير.. أعرف بعضهم وبعضهم ما أعرفه.. معهم ولدى صالح.. نشدتهم: ايش جرى؟!

قالوا لى.. خير.. حرب اليهود ما سلمت منها.. هذا رصاص يا

بو صالح..

رفعت أيدي وقلت: الله يكفينا فيهم وفيمن يعاونهم.

وقعدت في المستشفى أربعة شهور.. انجرحت في المفصل عند المثانة.. تصوّبت بصواب رشاش.. جاء على المسدس اللي كنت أحمله»..

وقف «أبو صالح»، خلع جبته الحمراء، وكشف عما فوق سرواله الطويل الأبيض، فبان مكان الجرح:

رقعة لحم مستديرة فيها مكان العملية.

قال مسفر:

- «والله صواب ما هو سهل.. لكن ربك سلم».

قال واحد من الجالسين:

- «والله يا بو صالح لو كنت ذبحت عشرين راس من الغنم فداء».

علق أحدهم وهو يضحك:

- «أبو صالح أهل الكرم.. يمكن يدسم شواربنا بريحة ذبيحة».

قال «أبو صالح» وعلى وجهه ابتسامة:

- «يا ما ذبحنا من فداء.. لكنكم جماعة تستاهلون كل خير».

قال مسفر، وهو يفرك يديه السمينتين، متلهفا:

- «طيب يا بو صالح.. وا يش هي قصة أهل فلسطين مع

اليهود؟».

رد أبو صالح بأنّة طويلة. كان قد جلس ووضع جبته على كتفيه:-
«ايه.. ايه.. القصة طويلة.. هاذول اليهود بمساعدة من الإنجليز يقولون إن أرض فلسطين لهم. وفلسطين هذي الأرض الجنة معروف إنها للعرب جيل عن جيل.. لكن مثل ما قلت لكم.. قدروا اليهود بسلاحهم، وسلاح الإنجليز، والأمريكان كانوا وراهم..قدروا يحتلون الأرض بالسلاح.. بالقوة، وبالفلوس..كانوا يشترون من الأمير عبد الله ملك الأردن هاذيك الأيام.. يشترون الأراضي ويبنون بيوت جديدة على طراز حديث.. وشوية.. شوية.. سووا كباين ومستعمرات.. وطردوا أهلها عرب فلسطين.

لكن هذيك الأيام كانت الدنيا نايمة، والعرب كانوا نايمين.. ما كانوا يدرون كيف يتصرفون.. واهي مشكلة كبيرة.. وطويلة عريضة.. من هاذيك الأيام.. تشردوا أهل فلسطين..ومات أعداد.. وهاجر ناس.. وسافر منهم ناس يجون يدورون شغل عندنا.. مصلحين دوافير، ومدرسين، ومصلحين سيارات في مكة وغيرها».

قال مسفر:

- «حكم سعود جاء بخير..لكن قّلت البركة.. وقلّ الخير من السماء.. وشحت الأرض».

قال واحد:

- «الدنيا كان فيها البركة. واليوم تغيرت الأحوال.. انتزعت البركة».

قال «أبو صالح»:

- «المسألة مسألة قلوب الناس وتعاونهم مع بعضهم..يد الله مع الجماعة.. والبركة معهم وين ما حلوا.. حلت».

** ** **

هبت رياح طرية. أخذ المغرب يقترب. أشعلت بعض البيوت في الجبل مصابيحها. قال أبو صالح إن المغرب يقترب، وأكد بأن أخرج ساعة الجيب الفضية المعلقة بسلسلة دقيقة على جيب الصدر. قرأ عقاربها المضيئة وقال إنها إحدى عشرة ونصف.. ويجب على من يريد الوضوء أن يأخذ إبريقا من الأباريق (المعدنية المتناثرة عند الحنفية الزنك) ويفتح «بزبوزها».. يملأ الإبريق ويتوضأ في الساحة الواسعة.

قال «أبو صالح»بعد الصلاة.. وهو ينهى التسبيح، ويتهيأ لركعتي السنة:

- «وجه الله يا جماعة: اللي يقدر يبات عندي.. يتعشى.. وبعدها يسري عند عياله.. الله يحييه».

قال «أحمد بن صالح»، وهو يعدل من عمامته مرتعشا:

- «خلاص.. يا بو صالح.. أنا عيالي راحوا من بدري من الوادي، وولدي عبد الله عندهم، وبا بات معكم الليلة».

قال «أبو صالح»متهللا:

- «الله يحييك يا بو عبد الله. معنا الليلة قطعة لحمة. وبنسوي عليها مرقة وعصيدة.. علشان سهلة.. الله يحييك».

كان أحد أولاد أبو صالح قد ملأ مصباح الجاز، أحسن شعلته،

ثم وضعه في مجلس الرجال، إلى جانب راديو البطارية الكبير، ووضع فراشا مريحا للجلسة، وحوله عددا من المخدات المحشوة بالعلف. وعلى الأولاد أن يلزموا الهدوء، ويحترموا الكبير، ويسمعوا الحديث.. ولا يمدوا أيديهم إلى قطعتي اللحم الفائحتين بالريحة المحبوبة قبل الأب أو الضيف. سينالون نصيبهم، ثم يأخذون دفاترهم وأقلامهم وينهمكون في الدراسة تحت ضوء المصباح.

أمهم وجدتهم وأخواتهم في الداخل. يتعشون العصيدة والمرقة، واللحم للرجلين، على فانوس بخيل الاضاءة.. لكنه يكفي حتى يحين وقت النوم، يصحون مبكرين.. يعملون القهوة بالجنزبيل.. ثم يسرحون قبل طلوع الشمس إلى الوادي.

(٥) الخال يزور (أبو صالح)

• قالت زوجة (أبو صالح) وهي تحدث جارتها عند البئر:

- «البارحة سمعنا في الراديو أغاني هيلة.. حقة سميرة توفيق».

قالت، وهي تحبها أكثر مما يحبها كل الناس.

وقالت:

- «أغانيها.. تصلح للحن جديد»، وغنت على طريقتها:

- (يا له لـلا.. لا.. للاله.. لا له لـلا.. يـا.. لللا لـه.. أحباب الضيف.. ضيف الله.. أحباب الضيف.. ضيف الله.. يا له للا.. يا.. للاله.. يا له للا.. يا.. للا له).

امتد صوتها ببطن الوادي، كان صداه يلعلع في الجبال القريبة المتقابلة.

قالت جارتها:

- «وطي صوتك يا ختى.. لا يقولون عندنا عروس».

وردت:

- «يا له للا..يا للا.. يا له للا يا للا له.. يستاهل اللي على بيت الحنش ياهب ايده».

بحماس وتأن:

- «أيوه.. يستاهل اللي على بيت الحنش ياهب أيده».

وضحكن بمرح .. ثم أخذن في إنزال الدلو إلى البئر.

** ** **

في الطريق الممتد المعوج، الصاعد، الهابط .. في منحدر الجبل، تحت البيت .. قابل أحمد أمه، وهي تحمل القربة السوداء المنداة على جنبها الأيمن، والماء يتقاطر قليلا .. قليلا، يبلل ثوبها ويروح يبلل سروالها العريض، والطويل.

قال أحمد:

– «يا امه .. أبي يقول هيا .. فيه ضيف في البيت».

أسندت الأم قربتها إلى جانب حجيرة مبنية على الطريق، مرتفعة في البناء إلى حدود الحزام، تهف بصوت مسموع، نظرت إليه في عتاب .. قالت:

– «أحمد .. ما لبست عمامتك عشان البرد .. الله يهديك يا ولدي!».

قال أحمد انه جاء مستعجلا حتى أنه قد نسى أن يلبس حذاءه. مسحت على رأسه برفق شديد .. أحس بموجة من البرودة والحنان، وسمع صوت الخرز الملتف بمعصمها .. أحس كأنها تدخل دماغه .. ورفع رأسه .. قالت عيناه في استحياء مكتوم:

(هل تحبينني يمّه).

احتملت قربتها، واندفعت مشيرة إلى ابنها لكي يمشي أمامها. فهو رجل، ولا يصح له أن يمشي خلف «الحرمة».

عندما وصلت إلى البيت، وجدت ابنتها قد أعدت قهوة مقبولة،

وقدمتها باليد اليسرى، والفناجين باليمنى، لأبيها وخالها.

قال خالها:

- «ما شاء الله..الله يبارك فيك يا غلتي..حرة.. والله حرة.. صرتي عزبة.. ما شاء الله».

نظرت خضراء عند قدميها، وكادت الدلة تنزلق من يدها، لكنها أحكمت قبضتها، وناولت خالها فنجانه وهي واقفة.

قال خالها:

- «أسلمي.. أسلمي.. ناولي أبوك الأول».

ومدت يدها بالفناجين لأبيها.. قال:

- «سلمت الحرة.. يعطيك العافية يا بنتي».

جلست، أخذا يتحدثان في مستقبل حياتها، ومشروع الزواج البعيد، خضراء انهمكت بكل جوارحها، في حياء شديد.. كانت تسمر عينيها في طرف الدلة أمامها. لم تحرك ساكنا، أو تتفوه بتنهيدة واحدة.

دخلت الأم، كانت تلبس شرشفا نظيفا، رائحته تقول انه مكث طويلا في الملابس المعطرة بالبخور، قالت لأخيها:

- «أنا فداء أخي.. سلام.. كيف حالك».

ودلفت تقبله قبلات سريعة، وهو يرد:

- «كيف حالك.. الله يسلمك.. الله يعافيك.. كيف حالك.. الله يسلمك.. كيف حال العيال».

وتجيبه:

- «الله يعافيك ويسلمك.. كيف حالك.. الله يسلم راسك.. كيف حال عافيتك».

وسألت بالسلام عن أمها، وعيناها تنضحان ببعض الدمع:

- «كيف حـال أمـي.. لي مـدة ما شفتها.. إن شاء الله تكون بعافية».

رد بابتسامة، مليئة باللطف، بأنها بخير. وسألها عن صحتها.. وقال:

- «ليش ما تجين تسلمين عليها..يعني مسافة ساعتين. والا نسيتي أهلك عشان بعيدين ؟».

اعتذرت اعتذارا مقبولا.. أشغال الوسمية والبيت، والعيال، يجب مراعاتهم، وملاحظة التشديد على الدراسة. وعددت الكثير من الاعتذارات التي لا يمكن لفاهم مثله أن يلومها عليها.

قال أبو صالح:

- «ان شاء الله نجي كلنا.. بعد ما نخلص الوسمية.. ومثلك عارف البير وغطاها).

ابتسم في محبة، ضاربا بيده اليمنى على صدره، مظهرا ترحيبه الشديد، واستعداده الكريم.. وسأل خضراء عن اخوتها.. قالت:

- «يلعبون في الساحة.. تحت اللوز».

سأل أبو صالح:

- (هل أعلفتم المشدود ؟)

قالت زوجته:

- «آفا.. أعلفنا حمارة آخي، وحطينا شدها».

وأشار إليها، بغمزة، فهمتها.. ستعد غداء طيبا.

استأذنت بخفة إلى الداخل.. لتعجن وتعمل أقراصا خفيفة بالسمن إلى جانب التمر، حتى يؤدون صلاة الجمعة مع الجماعة، وينزلون.. فيجدوها جاهزة.

فكرت، وهي تعد العجينة، إن كان لديها شيء من البيض. عندما نزلت إلى عشة الدجاج لم تجد إلا بيضتين. رأت أن تذبح إحدى دجاجاتها السمينة.

نادت أولادها من ساحة البيت السفلى.. تحت شجرة اللوز. طلبت منهم أن يصطادوا الدجاجة الصفراء، انطلقوا.

لم يكن «أبو صالح» يتوقع هذا الغداء الدسم..لكنه سلم في نفسه:

(حكيمة، وتحسن التصرف).

طلب من خضراء النزول للوادى القريب.. تقتلع أعوادا من البصل الأخضر، وفعلت.

وبعد الغداء، والتكثير بالخير، استدعى الخال أولاد أخته، دعا في البدء خضراء وأحمد.. قعد الأولاد إلى جنبه وهم يتدافعون ويتضاحكون بخجل.

أخرج الخال حافظة جلد تلمع. فتحها..كانت بجيبين، وفي أحدهما صور له ولأولاده.. تحاشد الأولاد، أرسلوا تحديقاتهم باهتمام نحو المحفظة.

أعطى كل واحد منهم.. بالتساوي.. قطعة نقود فضية كل قطعة أربعة قروش.

قالت القروش وهي تنخرط:«رنق..رنق».كانت الفرحة المباغتة تملأ قفزاتهم، وهم ينطون، واحدا.. واحدا..يقبلون خالهم.

قال الخال:

- «شموا أبوكم.. سلموا عليه».

.. قبلوا أباهم، ودخلوا عند أمهم. قبلتهم وفي يقينها هاجس: سيجئ لها نصيب.

(٦) الماطـــور

• منذ أول الصباح، منذ صاح الديك عند أول خيط أبيض من الفجر: كان الناس قد توزعوا في الوديان، يسقون زرعهم.

وكان فرحان قد جاء «بماطور» يعمل بالبنزين، ذهب الجميع وقتها يتفرجون عليه. كان حديث الناس: (ماطور يطلع الماء من البئر. يحتاج إلى سلم طويل من الحبال الجيدة، ويحتاج إلى صينية خشبية تحمله، تربط بالحبال الوثيقة وتكون قريبة من الماء..تشترك في إنزالها أيدي الرجال).

قالوا: (اشتراه بالتقسيط من مكة). وحمله على جمل سعيد بن أحمد، وإلى البئر أنزلته أيدي الرجال، وثبتوا أحزمته.. ربطوا أحدهم بحبل في وسطه، ونزل إلى قاع البئر. يقولون إن طولها اثنتي عشر قامة من قامات الرجال الطويلة.

أخذ، بين أسنانه، حبل التشغيل. ونزل واحدة.. واحدة. قال للذين على رأس البئر: (خلاص.. وصلت). وحل الحبل من وسطه، وبدأ يلف الحبل على المروحة، وينزعه بقوة ليشتغل ويدفع الماء إلى أعلى.

غير أن الماطور عاند معه. وفي كل مرة يشتغل قليلا وينطفئ فجأة، ليشتغل.. وينطفئ، يشتغل.. وينطفئ.

امتلأ بلعوم البئر بالدخان الخانق، حتى غاب الرجل عن البصر. بعدها، اشتغل الماطور ودفع الماء إلى أعلى، قالوا: «يا سلام على الماطور».

هزوا الحبل هزات، فلم يجب الرجل من أسفل البئر. كان الدخان مثل الضباب يندفع من أسفل. تحلقوا حول رأس البئر، أطلوا برؤوسهم. لم يستطيعوا إبصار شيء في القاع. الدخان شديد برائحته خانقة.

نادوا باسم الرجل، ولا من يجيب.. إلا صوت الماطور مثل الساقية العالية الهدير.

قرروا أن ينزل أحدهم ليرى ما يجرى، ربطوه بالحبل في وسطه، ودلوه قليلا.. قليلا. كان يتنفس بصعوبة بالغة.

وصاح، من أسفل، صيحة مخيفة:

- «الرجل طاح.. وينكم.. الرجل مات.. الحقوا.. وينكم ؟!»

ملأ الفزع المفاجئ حركتهم. تدافعوا. قالوا: «اطلع». وشدوه بقوة.

كان يتنفس بصعوبة. ضرب على جبهته عدة ضربات بكف يده اليمنى. قعد على أطراف أصابع قدميه.

كان يردد:

- «الله.. يا خسارة.. الله».

تطوع أحدهم، وكان شابا عنيفا، بالنزول مربوطا بالحبل من وسطه، وفي يده حبل آخر.

تماسكت شجاعته وفراسته. ربط الجثة المختنقة، وصاح:

- «اسحبوه.. اسحبوه».

وشدوا الحبلين. احتضنه بعد ما أوثق الحبل في وسطه. كان لسانه خارجا من فمه ،ينزف الدم. عيناه ظاهرتان كالبيض.

صاح واحد:

- «الرجل راح خلاص».

احتد آخر:

- «اسكت.. عرفنا.. أنت ما تعرف الكلام».

قال آخر:

- «خلوا واحد منا يطلع على الجبل، ويرفع صوته.. يدعي الجماعة».

انطلق شاب مثل الجرادة، وصاح بأعلى صوته:

- «ايه..ايه.. طاح طايح في البير». كررها عدة صيحات وعاد مهرولا.

قال واحد:

- «بدل ما تدعون الناس.. وتجمعوا النسوان.. كان خلاص.. أرسلنا واحد يجيب كساءه من القرية، ونشيل الرجل على خشبة عريضة».

وافق بعضهم.. رأي معقول وصحيح.

لكن صاح صائح. وسمع الناس الصياح، لن يسكتوا.كلهم يجيئون في طرفة عين. لم يمض وقت.. تناثر الصوت من واحد إلى واحد. ومن الراعي إلى سارح الوادي.. إلى واحدة ومنها إلى

واحدة.

امتلأت الأرض الزراعية، المحيطة بالبئر، بالناس والفوضى. وغلبت الحادثة على كل تقليد. جاء الشبان وجاءت الشابات. جاء الرجال من كل سن، جاءت الحريم. وحتى العجائز اللواتي لا يخرجن إلا فيما ندر.

كانت الولولة تأتي وتروح، ترتفع .. وتنخفض. جاءت أم الميت مع من جاء على داعي الصوت، وقد ذهلت. لم تصدق أنه ابنها. وقعت مغشيا عليها. حملتها النساء إلى البيت. رششن على وجهها الماء. أسرعت واحدة إلى صندوق ملابسها، أحضرت قارورة عطر من «الحبشوش».. لا يخرج إلا في مناسبة غير عادية.

سحبت سدادة الفلين التي تغلق فتحتها، دلقت منه قليلا، ومسحت به مسحا جيدا على وجه المغشية وجبينها.

كن قد أحضرن عددا من الوسائد المحشوة بالعلف.. أقمنها على هيئة مبعثرة حول رأسها، وجنبها، وقدميها.

جاءت واحدة بكسرة مرمرية من البخور، وضعتها في (الجمر) على عدد قليل من الجمرات، فارتفعت ضبابيته خيوطا تملأ جو الغرفة المظلمة بالرائحة.

قالت إحداهن، عارفة بأمور الإغماء:

- «هيا.. هيا.. وسعوا.. تقدر تتنبه ونتنفس».

طال غشيانها. انتبهت وهي تهذي. قعدت على السرير المصنوع من فتايل الخصف، مدت ساقيها.. راحت تضرب بيديها الممدودتين على ساقيها.. تولول:

- «يوه.. يوه.. ياخسارتك يا ولدي.. يوه..».

هدأنها بعض الشئ، عملن لها دلة قهوة كثيرة الجنزبيل، صببن في فنجان صيني كبير، قلن لها: اشربي.. تفيقى.

أخذت منه ملء فيها. ما استطعمته. قالت بصوت فيه حسرة وأنين:

- «حطوا جنزبيل على القهوة».

قالت التي جاءت بقارورة العطر:

- «يا بنت الحلال.. قولي لا إله إلا الله.. كلنا بنموت».

وأردفت النساء المتحلقات بتعليقات متتالية، فيها الكثير من التخفيف، والصبر، وتذكر القدر، وفعل الله في بنى آدم.

كان الأولاد قد تجمعوا، مثل الذباب، حول الجثة. زاد فزعهم، وزاد ضجيجهم. حركتهم أرعبت الرجال، نهرهم واحد من الواقفين، كانوا يخافون ضربه:

- «هيا.. يا الله.. انقلعوا.. دوشتمونا.. يا الله.. يا الله» تراجعوا للوراء في خطوات مرتبكة.

في تلك الدقائق، كانت بعض المواشي قد تعدت على زرع الناس، وبعض الغنم فلتت من قطيعها.

في الوقت ذاته، كان الرجال قد غطوا الميت بكساء تفوح منه رائحة بعيثران. غطوه وربطوه على خشبة استوعبته إلا قدميه، ظلتا ممدودتين وخارجتين. لكنهما سرعان ما غطيتا بحركة سريعة من أحد الرجال، كادت الأرض الزراعية المحيطة بالبئر تخلوا من الناس إلا

قليلا ! ترك الناس مكان الزحمة والحركة.. مواطئ الأقدام مختلطة، سحقت مساحات متفاوتة من نباتات القمح، والشعير، والعدس. الذي لم يطلع ثمره بعد. أمسك أربعة أشخاص بأطراف الخشبة. من الامام اثنان، من الخلف

اثنان.. حملوا الجثة، بعدما مسحوا الكثير من الدم النازف، من الفم والأنف، ببعض الخرق المتوفرة، وأحيانا بالعمائم التي قدمها الحاضرون من رؤوسهم.

قالوا: «سنغسل الجثة في البيت بالماء الدافئ».

تقاطر الناس في طابور متداخل. أما النساء فقد سبقنهم إلى بيت الميت، عند الأم التي هدأت قليلا، وألبسن حالتها بلباس من الدعاء الكثير، والاستغفار، والندب.

أدخلوا الجثة على سرير الأم المصنوع بحبائل متضافرة من الخصف. غطوها بغطاء آخر.

امتلأت الغرفة، أكثر، برائحة البخور.

أخذت النساء بيد الأم، وأقعدنها برفق في الداخل، في مجلس الحريم.

تقدمت ثلاث منهن، أوقدن نارا مكان مشبها، في ركن المجلس، انهمكن في إعداد القهوة والشاهي، والشاهي والقهوة.

الشباب، الذي ينفع وقت النوائب، يدلف من مجلس النساء إلى مجلس الرجال. يصبون القهوة في فناجينها، ويقدمونها إلى الرجال الذين ملئوا المجلس إلى حوائطه الأربعة، وملئوا مدخل الباب بأحذيتهم، وملئوا المجلس بالهدوء والاستغفار للميت.

يشربون القهوة والشاهى، والشاهى والقهوة.. سوف يخرجون بعدها إلى السفح الذي ينحدر خلف المباني، حيث المقبرة، يدفنون الميت ربما مع أحد أسلافه من العائلة، إن كان هناك مكان لأكثر من جمجمتين، يتم الحفر، أو اللحد، تجاه القبلة.

انكسر الهدوء الذي كان يملأ المجلس:

- «هيا.. اغسلوا الكريمة قبل آذان العصر».

- «أيو الله.. إكرام الميت دفنه».

- «رحمة الله عليه.. نكرمه بقبره أحسن».

- «قبل غروب الشمس.. إن شاء الله».

قال الفقيه إن دفن الميت وقت مغيب الشمس غير مستحب، ولا بد من التعجيل. أدخلوا أمه، بعناية شديدة، إلى الغرفة المظلمة. قبلته في جبينه ووجنتيه. نحبت عند رأسه، وسرعان ما تقدم الرجال بالنعش..

قال الفقيه، بعد الصلاة على الميت:

- «يا جماعة الخير.. سامحوه.. وادعوا له».

تمتم المصلون الواقفون تجاه القبلة.

عادوا إلى بيته.. تشاوروا في مساهمات ما يمكن الاشتراك فيه، من قهوة، وعدد من أقات التمر، ولزوم الحضور لمدة ثلاثة أيام لإقامة العزاء، ومقابلة المعزين من القرى المجاورة.

قالوا إن زوجته، التي طلقها قبل سنة، بسبب عدم الإنجاب، بكت عليه.

** ** **

الوسمية شغلت الناس. زرع ويحتاج للسقي، يحتاج للرعاية، يحتاج للملاحظة، بين وقت ووقت، من الأغنام التي يهملها رعيانها، أو تعدي الحمير المتسللة التي تأكل الجهد وتأكل الرزق.

قالت النساء في الوادي إنهن لا بد أن يساعدن أم الميت (مات وحيدها) في إحضار الماء، وإحضار لقمة لها بين حين وحين. هي عجوز وتحتاج للمساعدة اليومية.

قالت واحدة إن جارتها لا تتفق معها كثيرا.

وقالت: سنلاحظ زرعها.

اتفق الرجال على بيع «الماطور»، ودفع ثمنه لأم صاحبه.

بعد السؤال عن بقية الأقساط ستحتاج إلى جزء من القيمة، إلى أن يأتي الله بفرج من عنده. قال «مسفر» انه يريد شراء الماطور.. عنده عيال سيتصرفون بحكمة.. والبئر التي سيضعه عليها ليست بطويلة.

قال انه سيدفع الثمن مقدما للعجوز، وسيقسط بقية قيمته على فترات، حسبما يسمح الحال، وإذا ما تبقى من القيمة شيء يذكر فلن يؤخره بعد انتهاء الوسمية.

قال العم سيد الأعمى:

«يا مسفر..و أنا أخوك.. إذا كنت رجال بتدفع حق المسكينة،

وإلا فلا تشتري الماطور».

أجاب مسفر:

- «الله يقدرنا على حق المسكين.. ويغنينا عنه.. إن شاء الله يا سعيد نقدر ندفع حق الماطور».

اصطحب «مسفر» العم سعيد إلى «أبو صالح» للتشاور وقطع الوقت.

قال «أبو صالح»:

- «يا مرحبا.. من يوم مات الرجل، ما شفت هذى الوجوه الطيبة».

نادى بمن في الداخل:

- «يا عيال.. يا للي داخل.. ودنا بقهوة من ايدك»!

سمعت زوجته. لم ترد.. أحضرت حزمة من الحطب، شققته بالفأس، أوقدت القبس، وضعت الكانون، تناولت القهوة وحب الهيل والجنزبيل. وضعت «المحماس» لتحمس البن، حتى استوى بنيا فاحما يتوقد ويفرقع. حطته في «المهراس» ووضعت الدلة مملوءة بالماء على القبس.

سمع «أبو صالح» وضيفاه رنين المهراس. علموا أن «المرة» تعد القهوة.

قال «أبو صالح» موجها الحديث للعم سعيد:

- شفت «أبو جمعان» يا سعيد.. ما شفناه من يوم ممات الرجل!

مضغ العم سعيد لسانه، وطن بشفتيه.. قال:

- «لا والله يا بو صالح. لكن مرته تقول.. مشغول بالوسمية.. وأنت عارف مشاغل الوسمية».

قال «مسفر»:

- «أيو الله.. كلنا مشغولين بالوسمية.. وربنا يعدلها على خير».

صاح «أبو صالح»بالأولاد، وهم يحاورون كرة صغيرة، صنعوها من الخرق البالية في الساحة، وكان ضجيجهم عاليا:

- «يا عيال.. يا جن.. روحوا اقروا دروسكم.. بطلوا اللعب».

استمروا في اللعب، في حدود ضجيج مكتوم.

صاح ثانية:

- «هاه.. عافوا اللعب الفاضى..كل يوم كورة.. كورة.. وآخر السنة تجون تبكون.. وبعدين ؟! يا الله !!».

قال أحمد، في خجل، بصوت متردد:

- «خلاص.. قرينا دروسنا.. ما فيه حاجة».

استطاب «أبو صالح»الرد، قال:

- «تعال يا مالى.. ادخل هات القهوة».

لعب مرتين أو ثلاثا مع الرفاق، وهرول جاريا وسط الساحة، دخل من الباب الخشبي المطلي بالقطران الأسود المزروع بالنقوش إلى مجلس النساء، قال:

- «هاتى القهوة»!

قالت أمه:

- «أعطيك القهوة عشان تكبها.. افلح.. أنت ما تقدر تمسح مخاطتك».

رد أحمد، في ضيق:

- «ليش أكبها. هاتى.. أنا رجل.. أقدر أشيل الدلة والفناجين».

قالت بريبة:

- «والله ما أدرى.. لا تروح تكبها.. هيا تعال.. امسك الدلة في الشمال وضع الفناجين في اليمين.. يالله..».

حملها، وبخطى حذرة مشى من الساحة. أحس بحرارة الدلة في يده. وقبض بقوة على قطعة الخرقة، شد أصابعه، تقدم خطوة.. خطوة، ودخل من باب مجلس الرجال.

قال «أبو صالح»:

- «على مهلك.. واحدة.. واحدة.. رجال.. على مهلك».

عض بأسنانه العليا على شفته، غرز عينيه، على مهل، في يده الشمال. صب في فراغ أعلى فنجان من رصة الفناجين في يده اليمنى.. امتلأ الفنجان إلى خيط الذهب.. ناول أباه الفنجان.

قال الأب:

- «أسلم».

وأضاف:

- «إذا جبت القهوة.. لازم تصك بالفنجان في عنق الدلة.. لكن صب لعمك سعيد وعمك مسفر.. ضع الدلة، وروح قول لهم داخل..هاتوا لنا صحن تمر».

حط الدلة بعناية، على مهل. جرى نحو أمه.

بعد قليل جاء بصحن صغير فيه تمر متماسك..مثل العقيق الأحمر.. يقطر دبسا.

كان لعابه يسيل، ومخاطه يسيل، طول الطريق القصير. صاح الأولاد:

- «تمر.. تمر.. يا أحمد.. هات هب لنا.. حبة.. حبة بس».

نهرهم أحمد:

- «عيب.. حق الضيوف».

وضع الصحن أمام الضيوف، في الوسط. قال معتزا:

- «تفضلوا.. الله يحييكم».

تناول «أبو صالح» ثلاث تمرات، قال لأحمد:

- «خذ.. أعط رفاقتك في الساحة».

وأعطى أحمد تمرتين.

خرج أحمد..نادى رفاقه. اشتبكوا في حوار بالكرة، ناولهم التمرات، كل واحد.. واحدة.

مد يده بواحدة للثالث..قال:

- «خذ.. خذ يا غرم الله.. أنا وأنت فريق».

قال غرم الله:

- «يا سلام.. يعنى أنا آخر واحد تعطيني.. هات والا خذها»!

قال أحمد:

- «والله.. والله.. أنت بتاخذ أحسن تمرة.. ما أنا قط يسترجع قذفه.. أنا جبتها لك»!

ناداه من الداخل:

- «أحمد.. تعال صب القهوة.. عيب عليك تتركنا وتروح».

قال أحمد:

- «أيوه يا أبه.. أنا جاي.. جاي».

بعد ما انتهوا من شرب القهوة، إلى آخر فنجان من الدلة..

قال العم سعيد الأعمى:

- «يا أحمد.. روح يا مالى.. وحط لي إبريق ماء.. أبغي أتوضأ».

(٧) (أبوجمعان) مع ضيفه

• كان أبو جمعان يقعد بين الزرع ، وعلى حافة فلج الماء، الذي شق له بالمنقبة طريقا بين التربة، فخلق طينا رطبا ،يشبه إلى حد بعيد لون البن المحروق.

وكانت أصابع قدميه قد انغمستا في الطين، فاختلط لون القدم بلون الطين.. وأصبحا متشابهين.

في اللحظة التي تهيأ فيها لنزع ورقة من«ورق الشام»الأبيض، وقد ضغط على مقدمة العلبة الفضية فقالت: «طق»،لمح في الطريق الجبلية رجلا بثياب نظيفة، في وسطه حزام عريض، بيده مشعاب قصير.. يمشي ويهز مشعابه مع مشيته المعتدلة.

صرف نظره إلى الدخان، يوضب سيجارة، على مهل. ذهب فكره بعيدا، للقرية المجاورة، وراء الجبل.. منذ زمن بعيد لم يلتق بصديقه عطية !

دارت برأسه صور متقافزة، أقربها صورة الرجل الذي لمحه عن بعد قريب في الطريق الجبلية القادم من القرية المجاورة.

نفث نفسين طويلين من التمباك، سعل سعلة محشوة بالنحنحة. أخذ يخلل لحيته مبرومة الشعرة. كانت سيجارة التمباك الأخضر ترسل دخانا أزرق مبخرا برائحة قوية، من بين أصابع يده اليسرى.

لمح الطريق بنظرة خاطفة. كان الرجل القادم قد اختفى إلا رأسه في موطئ منخفض، وبان عقاله الأسود المنفرج: قليلا.. قليلا.

اتضح لأبي جمعان عن قرب، ومن فراغات أشجار الطلح الممدودة، القادم بالضبط. هو صديقه عطية. قال في داخله: (ما يطرا الذيب إلا وهو قريب).

قال بصوت سمعه عطية، بنقاء ومحب:

- «الله يا الدنيا.. يعني لو ما نسأل عنكم.. ما تسألون ؟!»

- عجن عطية صوت «أبو جمعان» في أذنيه برخاوة، ورد:

«مصير الحي يتلاقى.. يا بو جمعان».

وقف أبو جمعان على قدميه المبلولتين بالطين ،استل أصابع قدميه باندفاعه إلى فوق. ألقى بعقب السيجارة في الفلج، فقالت: «طش ». مسح على شدقيه ببطن يده اليمنى. تقدم إلى الامام، ما يقارب ثلاث خطوات، مد ذراعية بطولهما نحو صديقه.. وكان يبتسم عن أسنان بقيت في المقدمة صفراء قانية:

- «حيا الله الغائب».

تصافحا بحرارة. وقبلا بعضهما: هنا واحدة في جانب الخد الأيمن.. هنا اثنتين في الأيسر.. وهنا أخريين في الأيمن. نظرا في وجهي بعضهما.. تبادلا عددا لا يحصى من:

«طيب، وكيف الحال.. ايش الأخبار، طيب، وكيف الحال.. طيب، وكيف الحال ؟!».

قال (أبو جمعان) أنه سينتهي بعد قليل من توريد الماء للقصبات التي لم تذق الماء بعد.. ويمضيان إلى البيت.. سيجري الماء إلى الزرع المجاور، أو سيسد المجرى لحين ما يمتلئ في صباح الغد.

في الطريق إلى البيت تحدثا عن أحوال الزرع، والعيال، وأسعار السلع في سوق الخميس. قال عطية: إن سعر التمر والحنطة ما سبق لها ترتفع بهذا القدر. قال إنه اضطر لشراء أربعة «أمداد» من الحنطة: (قلّت الحنطة في البيت.. والعيال يفضلون خبزة الحنطة عن أي خبزة أخرى).

عندما اقتربا من ساحة البيت، راح «أبو جمعان» يطوف بضيفه، يحدثه عن مشاريع بيت ينوي بناءه، عقب الوسمية. شرح له أن العيال كثروا، ويحتاجون لسعة أفضل في السكن.

رأى عطية أن «أبو جمعان» لن يتعب كثيرا في إحضار الحجارة، فالجبل ليس ببعيد عن البيت.. (تنقل الجمال الحجارة من هناك.. إلى هنا.. كلها مسافة شرب سيجارة).

كان الوقت يهبط نحو آذان الظهر. طلب عطية إبريقا للوضوء. وراح، في الساحة الفسيحة، يبول ويتوضأ.

بعد الصلاة جئ بالغداء، عملته زوجة «أبو جمعان»، يفوح برائحة السمن. وسأل عطية عن زوجته، وعن العيال.

قال «أبو جمعان» وهما يدحرجان لقمهما في السمن. إن هذا السمن نظيف وجديد:

(من عمل «أم جمعان»، وعلى عطية أن يأكل).

كان «عطية» منهمكا في الأكل. وكان «أبو جمعان» يحلف، بين كل لقمة ولقمة، على عطية بالاستزادة !

حامت قطة بيضاء بأولادها. غمس «أبو جمعان» بعدد القطط لقيمات في السمن، وضعها على سفرة الخصف، تدافعت القطط

نحو يد «أبو جمعان». دفعها برفق إلى حيث وضع اللقيمات. اجتر لقمة كبيرة.. غمسها، ووضعها أمام الأم.

قال «أبو جمعان» محدثا ضيفه أنه يحب القطط، ويكرمها دائما من أكلهم.

تواصل الحديث عن القطط، والفئران. وتذاكر الرجلان ذاك الزمان الذي هاجت الفئران فيه. وذكر عطية حادثة الفأر لما غزا، في ليلة مظلمة، شحمة أذنه، وكاد يقرضها.

قام «أبو جمعان»، بعد حلفان كثير على الضيف، بالاستزادة في الغداء.

حمل الصحن، كان خفيفا. دخل به إلى «أم جمعان» طلب طاسة ماء بارد من القربة. غطست شواربه و رأس أنفه، وشرب حتى ارتوى. مدّ بها نحو «أم جمعان»، أوصاها بأن تملأها مرة ثانية. وحملها إلى عطية.

لم يسأله إن كان يرغب في الماء. وضعها أمامه برفق ،على مرتفع بداية الشباك.

قال «أبو جمعان» لعطية، وكان يعلم أنه قد أكل جيدا:

- «ما تغديت يا عطية..!!.. أخاف أن يكون غدانا ما أعجبك!».

رد عطية مؤكدا بالحلفان أن الغداء كان طيبا.

كانت علبة التمباك قد حان وقتها، لتقول: «طق»! وضّب «أبو جمعان» سيجارة في عناية. ناولها لعطية. قال عطية:

- «أفا عليك يا بو جمعان. تبغي تردني للأيام اللي راحت»؟!

تناول منه السيجارة. ضغط طرفها بين إصبعيه. انتظر «أبو جمعان» حتى يكمل بناء سيجارة له.

وضعا السيجارتين في فميهما. كانا يتكلمان، في مستقبل الوسمية، كلاما متقطعا وكانت السيجارتان تهتزان بين شدقيهما.

أشعل «أبو جمعان» عودا من علبة الكبريت، وجهه إلى رأس سيجارة «عطية». سحب سحبات قوية، إلى أن تعمرت سيجارته. أحس بطعمها على لسانه.

انطفأ عود الكبريت. انتزع «أبو جمعان» عودا ثانيا من العلبة. أشعله بحكه مضغوطة وواضحة هذه المرة.. قالت: «شخطط». ولع سيجارته، ثم ملأ فمه بالدخان، وظهرت حفرتان غائرتان في الخدين.

قال أبو جمعان:

- «ما للشاهي وقت أحسن من هذا الوقت».

جلسا متكئين على مساند العلف، المحشوة في أكياس قماش - خرائط - جئ بها من مكة، مكتوب عليها:«دقيق أمريكاني عال العال»، وفيها نجوم زرقاء باهتة، مازالت مرسومة بوضوح.

حيث كانت فناجين الشاهي، الخفيف، ترسل خيوطا بخارية، تتشابه في الفضاء مع دخان التمباك.. طاب المزاج. حان لعطية أن يفتح باب الحديث، ويطرح الموضوع بجدية. قال:

- «يا بو جمعان.. العلم خير!».

رد «أبو جمعان»:

- «خير.. قول يا عطية !».

واصل عطية:

- «الدنيا.. وأنا أخوك.. تروح وتجي.. وابن آدم كما المرجيحة.. يوم له ويوم عليه.. وأنا نويت أسافر.. أشوف كما الناس.. يمكن على طاري الحج في مكة ألقى شغلة.. الزراعة ما عادت تعطي نص ثمرتها، والدهر ما يرحم.. وأنت تعرف، مثلك ما هو بغشيم.. السفر يحتاج لدراهم.. أسبوع من هنا حتى تصل مكة.. وما تدري كيف تكون ؟.. الغريب ما له صديق في السفر إلا الدراهم !!

إن كان. وأنا أخوك، عندك شئ.. وإن شاء الله.. بعد عودتي.. أرد الصاع صاعين.. وإن كان ما عندك شئ، فوالله ما أشره عليك، واللي فيك مخبور !!»

قبض «أبو جمعان» على لحيته بيده اليسرى. ضرب على صدره بالأخرى. نظر إلى «عطية» بعينين ثابتتين، قال:

- «يا عطية.. أنت جيت والله يحييك، البيت بيتك، وأنا أخوك في الطيب والبطال.. ولو كان رأس واحد من أولادي.. أبشر بالخير، وما للصديق إلا صديقه ! »

نادى «أبو جمعان» زوجته. جاءت ملبية بترحاب..

قال:

- «هاتي الدراهم المصرورة في الصندوق».

غابت قليلا..جاءت بصرة صغيرة، تفوح منها رائحة عطر كادى.. فضها «أبو جمعان».. وضعها قدام عطية.. وقال:

- «والله لتطلب.. أطلب يا عطية !».

قال عطية أنه يبغي عشرين ريالا.

عد «أبو جمعان».. فوجدها أكثر من أربعين ريالا.. كانت قديمة.. نقد عطية عشرين ريالا.

قال «عطية» بامتنان:

- «عشت.. وأنا أخوك.. الله يخلف عليك».

استأذنه في الذهاب. رافقه إلى آخر الساحة.. تصافحا، ومضى عطية ناشرا كلام التوديع الحار.

قالت «أم جمعان» لزوجها:

- «يا مخلوق.. وراك تعمير بيت.. لك سنتين تحط القرش على القرش.. كيف تروح تسلف فلوسك»؟

نهرها بعين حمراء، أظهرت عتابا قاسيا. قال أنها لا تعرف حسن التصرف و لا الرأي.. هي ناقصة عقل ودين.. هي تسكت خير لها!.. الفلوس فلوسه هو.. وهو حر في إنفاقها.

قالت محتدة:

- «أيوه.. نص الدراهم تروح في التمباك.. ونصها تروح أسلاف».

استعاذ بالله، وحوقل كثيرا.. رأى من الصواب مغادرة البيت، والتفسح نحو سعيد الأعمى... فمنذ جمعتين لم يزره.

** ** **

وصل «أبو جمعان» إلى «سعيد الأعمى». خلع نعليه، المصنوعتين من سيور الجلد الأصلي، عند الباب الخشبي المتين. نادى باسم «أبو مسفر» ،وجاءه الرد بالترحاب.

سلم «سعيد» على «أبو جمعان»،

سأله عن حاله وحال عياله. قال.. من يوم موت (فرحان) بالماطور لم يتقابلا.

كان الهم باديا على «أبو جمعان»،رابضا في وجهه.لكنه قال أنه بخير، والعيال بخير، وزوجته بصحة كما الفرس.

وأضاف:

- «الله ينتقم من النسوان».

عرف العم سعيد أنه دخل في عراك كلامي مع زوجته، لكنها غيمة ولا تلبث أن تزول، والكل يتخاصم مع امرأته في أبسط الأمور.

دخلت «سعدية «زوجة العم سعيد الأعمى. كانت تحمل على ذراعيها حزمة حطب، لا تزال عيدانه خضراء. سمعت «أبو جمعان». اندفعت بحماس.. رمت الحزمة إلى الركن القريب مكان القبس، التفتت إلى مجلس الرجال الذي يفصله باب عريض مفتوح، قالت:

- «سلام».

ووجهت قولها إلى «أبو جمعان»:

- «ليش يابو جمعان.. ينتقم من النسوان ؟! وأنتم الرجال.. ليش ما ينتقم منكم ؟.. وألا أنتم ملائكة ؟!».

أحمرّ وجه العم سعيد الأعمى قليلا. صوّب وجهه نحو صوت زوجته، رجرج عينيه البيضاويتين إلى فوق وتحت..لكنه لم يتكلم.

واصلت:

– «كل شئ لكم حلال.. الكلام والخصام والضرب والشتيمة!».

تنحنح العم سعيد الأعمى. قال بصوت قوي، يريد أن يفرد رجولته:

– «يا مرة.. خلاص..لسانك أطول منك».

تراجعت، وقلبها ممتلئ بالكثير من الغيظ والكلام غير المباح. قالت:

– «العيب.. عندنا ضيوف، أطلع شوف «أبو صالح»ايش يسوي مع مرته.. حتى لو قالت له بت الليل واقف !».

رد العم سعيد الأعمى:

– «أقول نسوان صحيح.. ما يفتحون كلام ويسكتون أبدا».

تدخل أبو صالح منهيا الكلام:

– «يا سعيد.. يا بو مسفر.. الله يخليك لو ما كانوا النسوان.. ما نسوى شئ بدونهم، ما غير الله يهديك.. والكلام انتهى !».

كان «أبو جمعان» يتنفس الدخان بحرارة، وينفخ في الهواء.. يمضمض فمه بالدخان، وينفخ. قال، في قرارته:(استجرت يا عمرو

من الرمضاء بالنار). رمى بعقب السيجارة في النار المتأججة أمام جلسته. وقال لزوجة العم سعيد الأعمى:

- «بالله يا أم مسفر.. هاتي لنا ملء الطاسة ماء».

قالت:

- «أبشر.. ولو كان..!».

لم تكمل. لكنها مضت إلى حيث القربة المعلقة عند المدخل. فتحت فمها، أفرغت من مائها المعطر برائحة القطران. ملأت الطاسة إلى أكثر من نصفها، وجاءت بها إلى مجلس الرجال. كانت الطاسة تدفع بقطرات جانبية من الماء الفائض.

(٨) في البئر

• إلى «عيون الحمام» سرحت النساء والبنات، حاملات القرب السوداء، المطلية بالقطران.. للاستقاء من «عيون الحمام» لا يحتاج لدلو، ولا لعضل يشد، ويرفع، ويصب. الماء ينبع بسخاء من تحت الصخور.. يمضي مهرولا إلى أن يجد له مجرى.. يختفي، ويظهر بعيدا في مجرى آخر، أو يبتلعه مسيال عميق.

جلسن على طرفي المجرى، يغترفن الماء بعلب السمن الفارغة، ويملأن القرب بالماء الدافئ: اثنين..اثنين، واحدة تمسك فم القربة، واحدة تغرف وتصب.

دارت الحكاية بين لسان ولسان، بين تذمر، وخوف، وعتاب، وغير عتاب.

قلن: خائفة وتستاهل الموت!

قلن: العيب من الرجل الذي تركها!

قلن: لا.. العيب من أبوها.

حكت واحدة الحكاية بوقائعها، دونما لوم، قالت:

- «يقولون إن الرجل كان يحب البنت.. وكان بعد ما ينامون الناس.. يروح وراء شباك البداية.. من وراء البيت.. يحذف بحجر صغير.. تسمع الحذفة، تفتح البداية وتشوفه واقف في برد الليل ينتظر ردها.

قالوا.. قفلت الشباك، أهلها راقدين..ندرت عند الباب الذي

في الوراء.. فتحت، وقالت له أدخل.. أهلي نايمين كلهم صغير وكبير.. تعال.. ادخل !.. ودخل..».

علقت واحدة:

- «الله يقطع نصيبه..كيف يدخل ؟!»

استمرت الأخرى تحكي:

- «يقولون..دخل.. ورقد معها في فراشها.. واستمر على هذي الحال.. يوم بعد يوم.. يوم..بعد يوم..

وفي يوم.. شافت بطنها كبر.. وعرفت إن الموضوع كبر».

قالت واحدة، بتعجب:

- «يوه.. يوه !».

واصلت:

- «قالوا..راحت شكت الأمر لأمها..قالت.. أبوك لو درى يذبحك..خلاص.. اسكتي.. عندي وصفة. وراحت تطبخ لها العرفج والبصل، وتسقيها.. لكن ما شافت فايدة.

قالوا.. يوم الخميس اللي راح.. يوم السوق.. دوروا أهلها عليها..دوروا.. ما لقيوها، نشدوا القريب والبعيد.. ما لقيوها.

قالوا..أمها ماتت من الخوف في نفسها..لكنها سكتت. راحت عند الرجل.. صاحب بنتها، نشدته.. قال ما أدري».

قالت واحدة:

- «الله يخيبه».

واصلت:

- «الرجل كان يدري وين هي..لكن كان جبان !».

يقولون..باتت عنده هذيك الليلة. وصبح الخميس.. عند آذان الديك..خرجت من عنده.. وراحت عند بير بعيدة.. ورمت نفسها.

يقولون.. الرجل حاول فيها..حاول فيها، وقال لها يا بنت الحلال.. أقعدي معي، وبكرة نشرد بعيد عن هذي الديار، واللي يصير.. يصير ! لمن ما رضيت. حزمت وسطها بشرشف، وسعت. حتى عند البير ورمت نفسها.

قالت واحدة:

- «الله يكفينا..وليش ما سمعت كلامه ؟».

قالت واحدة:

- «لا والله.. الا راحت على النار. لكن كيف عرفوا بعدين؟!».

- «يقولون..أبوها راح للحكومة وسألهم.. راحوا يدورون.. من الخميس إلى الخميس يدورون.. ودلهم واحد من ذيك القرية على بير فيها ريحة عفنة.. ولقيوها فوق الماء !!».

نهرتهم واحدة:

- «هيا.. هيا.. تأخرنا.. الله يرحمها.. هيا».

مضين يخضن ويزدن في الحكاية.

كن قد تأخرن عن بيوتهن.. كانت الطريق تكشف عن قطرات ماء مرتطمة بالتراب، وكانت القطرات تنز من القرب السوداء.



(٩) الزلـة

كانت صلاة الجمعة قد أديت. لم يغب أحد من أسفل القرية ولا من أعلاها. جماعة. .جماعة، وجماعة واحدة كبيرة. الكلمة واحدة، والرأي واحد، والمشورة واحدة: في الطيب والبطال. في مراح العروس، أو حضور عزاء الميت، عندما تنوب النائبة، أو يحدث اعتداء من القرى المجاورة، أو من القبائل البعيدة. .الجماعة كلها واحدة!

يجتمعون في بيت الشيخ، يتشاورون، كلٌ يرى رأيه. . يخلطون المشاورات، ويخرجون بقرار ما ينفذ منه الماء.

جلس كل من أنهى ركعتي السنة بعد الصلاة خلف الإمام. جلس، في ساحة المسجد، على رؤوس أصابع قدميه، يسلم على الغائب والقادم من السفر، وينتظر خبرا يذاع أو رأيا يعرض.

خرج ثلاثة رجال من المسجد، محتزمين بالخناجر. كان لكل منهم حزام جلدي متين، مزخرف بنجوم فضية، وسيور دقيقة ملونة.

سلموا على الجماعة سلاما طيبا !. . قعدوا جانبا، حتى خرج كل من في المسجد. رأوا في الجماعة ناسا أغرابا.

بدأ واحد من الرجال الثلاثة الكلام. كان يتكلم بترتيل مرتب، يقف بعد كل قول، ويقول: «استغفر الله العظيم».

قال:

- «يا جماعة الخير. . العلم خير. .كلنا أخوان و رفاقة. . استغفر

الله العظيم..

وادينا وواديكم نعتبره واحـد.. وبلادنا وبلادكم واحدة.. وسوقنا واحد.. والله واحد.. استغفر الله العظيم.. وأظن الباطل ما يرضيكم.. والحق لازم يعدى فوق الصغير والكبير.. استغفر الله العظيم.. ونحن جينا نشتكي.. وجينا نطلب الحق.. والحق ما يرفضه إلا الجاهل، أو المجنون..استغفر الله العظيم.. الأيام الأولى من هـذا الأسبوع.. تعدت غنمكم على حمانا، وهجمت على الزرع.. أكلت، وزهقت مثل ما زهقت، وعيالكم اللي يرعونها.. تعدوا على عيالنا وضربوهم.. استغفر الله العظيم.. وأظن هذا العلم ما يرضيكم.. وما يرضي أي عاقل !»

وأضاف:

- «وأظن أنكم أهل للحق، وسلامتكم !!».

انتشر الهدوء. كانت العيون وحدها تقرأ الوجوه، وجوه من يمتلك الأغنام، ويسرحها للوادي بالأخص. أفسح الهدوء سكة لقول الشيخ. تنحنح الشيخ، رفع مقدمة عمامته التي تغطي جبينه إلى فوق مقدمة العقال.. قال:

- «سلامتكم !».

وأضاف:

- «جيتم تطلبون الحق.. ومثلما قلت، ما بيرفض الحق إلا الجاهل والمجنون ولابد نشوف الموضوع، ونتحقق من اللي حصل.. لو بان لكم عندنا حق.. ابشروا به.. ولو بان لنا عندكم حق.. فالله ما يضيع الحق !».

سكت قليلا، وأضاف:

- «و سلامتكم».

قال الرجل:

- «انتم تعالوا.. وشوفوا التعدي.. وبعدها نتفاهم على الخير».

وافق الشيخ بلسان جماعته، وانصرفوا. اتفق أفراد الجماعة على اجتماع يكون في مقدمته الشيخ، وأصحاب الأغنام.. كان الاجتماع في بيت الشيخ.

جاءت جماعة من البيوت المتناثرة في القرية.. حملوا عصيهم، ومشاعيبهم، واحتزموا بالجنابي والخناجر، توافدوا واحدا بعد الآخر.

امتلأ مجلس الشيخ..كانت الأحذية تغطي المدخل عند الباب، كما أنها تربض عند باب المسجد.

جاءت القهوة.. والشاهي، والقهوة.. صبها الشباب الذي يعرف شغله في الملمات.

بعد تناثر الكلام، من بعيد، حول الموضوع.. قال الشيخ:

- «يا جماعة الخير..!».

وهبط الهدوء.

أضاف، بدون انقطاع:

- «العلم خير..نحن كلنا معروفين من أعلى القرية إلى أسفلها.. وما كلنا عندنا غنم.. بعضنا عنده غنم.. لكن بعضنا ما يوصى عياله

لما يسرحون يرعونها.. واللي عنده غنم معروف.. لازم نرسل اثنين منا يروحون يشوفون مكان التعدي.. إن كان زلة تستاهل نروح لجيراننا.. ونغطى ونوطى.. نختّم لهم بالحق..فهذا واجب علينا.. وإن كان العلم مختلف.. فغضب الله على الشيطان.. وأنتم أحسن نظر.. ايش تقولون ؟!».

قالوا بصوت واحد:

- «هذا رأي صحيح».

وأضاف واحد، متأخر:

- «رأي صحيح.. والله !».

قال الشيخ:

- «نرسل أبو جمعان وأحمد بن صالح في هذه الساعة.. ويجون لنا بالخبر».

عدل «أبو جمعان» من قعدته، وأرسل عينيه، بتأهب ،إلى «أحمد بن صالح».. قال:

- «اتكلنا على الله».

التقطا مشعابيهما، نهضا، قالا:

- «في أمان الله يا جماعة».

ردوا:

- «الله معكم».

أودعا باب المجلس قفاهما. هبطا نحو الوادي، وعند سفح الجبل

الواقف بين القريتين – وقفا على حدود الحمى، قفزا على حجيرة مرتفعة البناء قليلا.

حاما في مكان التعدي.. طوفا شمالا، ويمينا. فوق، وتحت. وجدا أثراً صارخا لتعدي الغنم. كما لقيا بقايا عصي متكسرة. تيقنا من أن التعدي وقع، ولابد من الاعتراف بفعل الخطأ.

قال «أحمد بن صالح»، مداريا:

– «نأخذ واحد من جماعتهم.. وواحد من قريتنا.. يحلف بالله.. نأخذ جمرة يحطها كل واحد على لسانه.. واللي تحرق لسانه فهو وجماعته كذابين.. ايش اللي يثبت أن عيالنا هم اللي تعدوا بغنمهم؟!».

قال «أبو جمعان»بغضب وانفعال:

– «يا أحمد.. هذا حرام.. وأنت كبير في السن.. الحق واضح.. والتعدي واضح.. ولا تحتاج يمين ولا جمر.. اتق الله يا شيخ !!»

همهم «ابن صالح»، ثم قال دفعة واحد:

– «طيب..ليش تتضايق..أنا قلت وايش رأيك.. لو تشوف أنه رأي معقول.. والا نعود ونقول لهم.. شفنا التعدي واضح وما ندري إذا كان من عيالنا، ولا من غيرهم».

قال «أبو جمعان»بحسم:

– «لا..لا.. الحق حق.. هيا..نتكل على الله، ونقول لهم على اللي شفناه».

مشيا. كان أحمد بن صالح يمشي بخطى ثقيلة.

صاح الأولاد لمن بالمجلس:

- «أبو جمعان وبن صالح جاءوا».

بعد قليل من الانتظار سمع صوت نعليهما في الساحة. دخلا، سلما بصوت خفيض، جلسا.

جلس الشيخ:

- «وايش العلوم ؟!».

قال «أحمد بن صالح»:

- «العلم خير.. التعدي لقيناه.. لكن ما ندري من هو راعيه».

قال «أبو جمعان»:

- «التعدي باين.. ولقينا عصى مكسرة.. وأول الحمى مأكول.. والحق حق».

قال الشيخ:

- «غضب الله على الشيطان.. لازم نجهز منا ستة رجال.. يروحون.. ويختمون بالحق.. يوم الجمعة.. يحطون سلاحهم في ساحة المسجد.. ويقولون لهم اطلبوا الحق».

توالت الأقوال:

- «حق.. والله حق».

- «واجب.. والحق ما نضيعه».

- «بكرة ندور على الحق عند غيرنا.. نلقاه».

- «نجهز الرجال يوم الجمعة.. إن شاء الله».

صباح الجمعة.. تجهز ستة رجال.. كان «أبو جمعان» أحدهم. لبسوا زين الثياب.. احتزموا بالخناجر، وأخذوا في أيديهم المشاعيب. كان ثلاثة من الرجال يقلّون على أكتافهم ثلاثا من البنادق البلجيكي، وفي رؤوس البنادق الثلاث، إلى جانب أذن كل بندقية، مشاحن رفيعة مثل الإبر الكبيرة، حديدها أسود، لا يلمع فيه إلا مكان اليد، خشبه داكن مثل الحناء المحروق.

ودعوا بعض الجماعة في بيت الشيخ، ومضوا ببطن الوادي، في الطريق الجبلي المحفوف بالصخور والحصى: كانوا يتحدثون عن مواجهة الناس في ساحة مسجدهم قالوا:عددهم ليس كمثلنا.. صحيح منهم رجال أطوال أشناب، يعرفون الكلام، والأخذ والرد، لكن ما نتركهم يأخذون عنا فكرة التقصير.. أجدادنا كان الواحد منهم يسوى قبيلة.. في حرب..في نائبة.. في سوق.. في عرضة.. في كل العلوم.

انتهى بهم الحديث عند أول بيت، أسفل الجبل، من بيوت الجيران في القرية. هجدوا.. كانت خطواتهم تصطك بحجارة الطريق.

فاجأوا صبيانا يلعبون، سألوهم عن مؤذن الجمعة. أجاب صبي بلسان يسيل بالخوف والتردد.. أن المؤذن قد أذن قبل أن يخرج مع رفاقه.. سألوه.. متى خرج.. قال أنه خرج معهم يوم خرج بعد ما طلع من البيت.

لم يجدوا جوابا يمكن الاعتقاد فى صدقه. مضوا إلى وسط القرية.. حيث المسجد. لا بأس أن تقدموا قبل وصول الفقيه.. كانوا طاهرين.. مستعدين صوب المسجد..و ليس لدخول أي بيت آخر

قبل الخاتمة، وعرض واجب الحق.

دخلوا المسجد، وصفوا أحذيتهم، الاثنى عشر، جانبا، عند الباب. وقفوا في صف واحد.. الصف الثالث، الرابع للأولاد ومن يجئ من الوادي متأخرا.

عندما دخلوا سكنت ضجة الذين يقرؤون في المصاحف القديمة.. تجمعت النظرات في الركن.. عند موضع البنادق والمشاعيب.

حدثت المفاجأة: الفقيه التاجر.. أخرج ورقة من جيبه وقرأ:

«علي بن صالح.. ثلاثة ريال، بتاريخ ...».

ظن المصلون أنه حساب يوم القيامة، وقد جاء في خطبة الجمعة!!

بسرعة، طوى الورقة. دسها في جيبه.. أخرج ورقتين في طية واحدة. تنحنح مرتين.. ثلاثة.. وقال:

- «الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده».

استمر في الخطبة المنقولة من دفتر الخطب، قال في الخطبة الثانية:

- «اللهم احم حوزة الدين، ودمر اليهود وأعوانهم من المستعمرين.. اللهم أجعل ولايتنا فيمن خافك واتقاك، اللهم أنصر حاكمنا، واعنه على أعداء الإسلام والمسلمين».

رددوا خلفه:

- «آمين.. آمين.. آمين».

واختلطت «آمين» بترديد البعض «آنيم.. آنيم».

عقب انتهاء الصلاة، قبل خروج المصلين من المسجد، وقف واحد من الرجال الستة.. قال:

- «يا جماعة الخير.. عندنا بعد الصلاة كلام».

عاد إلى صف آخر، صلى ركعتي السنة. خرج المصلون، انتعلوا أحذيتهم، جلسوا على رؤوس أصابع أقدامهم، فوق تراب الساحة، دون أن يتغيب نفر واحد.. انتظروا بداية الكلام.

قال أكبر من في الرجال الستة:

- «السلام عليكم يا جماعة».

ردوا:

- «عليكم السلام».

قال:

- «العلم خير..حنا جينا.. ولقينا عيالنا تعدوا على حماكم.. والتعدي واضح.. واللي تأمرون به.. انحن حاضرين».

تقدم، ووضع سلاحه وسط الساحة.. تقدم الخمسة، ووضعوا أسلحتهم إلى جانبه.

عاد إلى مكانه وواصل:

- «سلاحنا بين أيديكم.. جينا نختم بالحق.. ونعترف بالتعدي».

ساد صمت قصير، قال شيخهم:

- «انتم جيتم.. والله يحييكم.. والاعتراف بالحق فضيلة» وأشار بحركة من يده. قام رجل من الرجال وجمع سلاح الضيوف. فهم

الرجال الستة أن الموعد في مجلس الشيخ.

جاء الجميع إلى بيت الشيخ.. خلعوا أحذيتهم. كان الفقيه يجلس إلى جانب الشيخ.

جاءت القهوة، والتمر، وجاء بعدها الشاهي.

قال الشيخ:

- «الله يحييكم.. خذوا سلاحكم.. ولازم نكتب بيننا ورقة. ونذكر فيها الحادثة.. ونذكر حضوركم.. وخاتمتكم».

وافقوا.

قرأ الفقيه الورقة. كتبها بقلم حبر قديم.. كان يغمسه في قارورة الحبر، يكتب سطرا ويغمسه. قال:

- «بسم الله الرحمن الرحيم..

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين، وآله وصحبه أجمعين. وبعد، أنه في يوم الرابع من شهر جمادى، اجتمع ستة من رجال أهل قرية «الجبل».. عدد أسمائهم.. مع شيخ وأهل قريتنا «الوادي». وذكروا معترفين بزلّة غنمهم وعيالهم على حمانا. والذي يقع على الحد بيننا وبين القرية المذكورة، وذكروا في اعترافهم بواجب الحق، أن عيالهم اعتدوا على عيالنا بالضرب والشتم، وكانوا هم المبتدئين، والبادي أظلم. واليوم جاءوا بسلاحهم وطرحوه في ساحة المسجد، وضربوا على صدورهم، أنهم مستعدين بكامل الحق. وبعد السماح والدماح، وصفاء النفوس، تم رد سلاحهم بكامله، والاتفاق على غرامة أربع من الغنم. تذبح في قريتنا، ويحضرها الستة المذكورون مع شيخهم،

وهي سبل وسابلة إذا لا سمح الله وحدث اعتداء من جهتنا.

شهد الله تعالى علينا، وأذنا لمن يشهد. والله خير الشاهدين».

دارت المحبرة على عدد من الجالسين، غمسوا إبهاماتهم في الحبر، وغمس الشيخ راحة إبهامه، وغمس الرجال الستة إبهاماتهم، وامتلأ ذيل الوثيقة بالبصمات.

نسي الشيخ أن يبصم بختمه. . استدعى ابنه، جاء بختم مثل الخاتم الفضي الكبير، مربوط بمنديل أحمر مزهر. غمسة في المحبرة، وضغط به إلى جانب بصمته. غطى الحبر المتشعب طرف الحروف، وكاد الاسم يختفي.

كتب الفقيه ورقة ثانية من الورق المقوى، الذي يصلح للحفظ، مثلما كتب في الأولى.

دارت المحبرة والورقة، توالت البصمات، وجاء ختم الشيخ في أسفل الذيل.



(١٠) أحمد يتعلم أشياء جديدة

• دخلت الشمس، بتسلل دافئ، من بداية الشباك الشرقي. حملت معها ذرات صغيرة اختلطت بنورها.

جاءت القطط، وألقت بأجسادها في التمدد الطويل من فتحة الشباك، أضاءته، وأدفأته الشمس.

كان أحمد يقعد مع إخوانه، يشربون القهوة بالجنزبيل، يبللون كسر الخبز في الفناجين، حتى تصير لينة، ويأكلونها.

كانت أمهم قد أوصت بنتها بمراعاة إخوانها عندما يصحون متأخرين، ويأكلون فطورهم. أحس أحمد وهو يقضم كسرة لم تلن في القهوة بكرةٍ صغيرة قاسية تذهب وتجئ مع اللقمة. قنفذ وجهه، انكمشت فتحتا عينيه، زر حاجبيه.. قال:

- «ضرسي.. ضرسي طاح».

نقل اللقمة في يده اليسرى. بدون بحث طويل لمح قطعة مرمرية بيضاء بجذور مشرشرة، كانت تختلط باللقمة السمراء الممضوغة.

- «يا حظك.. أعطها لعين الشمس»!

قبض على الضرس بين أصابعه.. طرحه في راحة يده. تلمّح في جوانبه، و نهض بخفة القط حين يلمح الكلب.

خرج إلى الساحة، تبعه إخوانه.

قالت خضراء:

- «يا أحمد.. احذفه في البعيد».

شد يده اليمنى إلى صدره..شدات مكتنزة بالقوة، لواها في الهواء ثلاث مرات.. أخّر قدما وقدم قدما.. حذف بالضرس تجاه الشمس.. قال:

- «خذي يا عين الشمس ضرسي.. وهاتي ضرس غزال».

قالت خضراء:

- «ما هو بكذا..قول.. خذي يا عين الشمس ضرس الحمار وهاتي ضرس غزال».

أعاد:

- «خذي يا عين الشمس ضرس الحمار.. وهاتي ضرس غزال».

قالت خضراء:

- «تعال.. مضمض فمك بالماء والملح».

قال:

- «الملح يحرق الفم».

قالت:

- «ما يضر.. علشان الدم يوقف».

أحضرت فنجان قهوة من الصيني، ملأته بالماء، ووضعت وسطه فصين من الملح، حركته بهدوء بسبابة يمناها، كما يحضر الدواء.

قال إخوانه:

- «يا حظك.. يا أحمد.. بيطلع لك سنون غزال!».

شعر أحمد بالتعالي. قال أنه بقى عليه ضرس واحد، ويصبح رجلا من الرجال!

** ** **

مضت أيام. كان أحمد يشعر فيها بحاجة إلى شيء لا يمكنه الإفصاح عنه.. عاد يفكر في أشياء كبيرة وجميلة.. قال في نفسه متخوفا:

(لو أنهم يعرفون)!

قرر أن يحكي لرفيقه (غرم الله) عن احساساته المكتومة.. وصمت.

سأله رفيقه، الذي يكبره بسنة واحدة:

- «يا أخي.. تحب تتزوج مين.. من البنات؟!».

فوجئ «غرم الله» بالسؤال. قال:

- «يعني!! لازم أتزوج حميدة بنت خالي.. وخالي وخالتي يحبوني.. وحميدة تستحي لما تشوفني عندهم!».

قال أحمد:

- «طيب يا مجنون.. هي أكبر منك.. كيف تخطبها؟!».

رد «غرم الله»:

- «لازم أخطب واحدة.. عزبة».

قال أحمد:

- «حميدة أكبر منك بسنتين، وعمرك ثلاثة عشر سنة هالحين!».

قال «غرم الله»، باستنكار:

- «يا سلام.. وايش يعني.. الفرق سنتين.. وأنا رجل قلعت كل ضروسي.. وطلع لي بدالها ضروس غزال».

قلب أحمد موضوع الحديث.. قال أنه شاهد مرة حمارا و حمارة بيضاء!.. والحمارة ترخي برأسها إلى الأرض. قال أنه أحس بدمه يفور في جسمه.. ملأ الدم وجهه من الخجل!

بعد سرَحَان قليل، قال أحمد:

- «..مرة سألت أمي.. من أين تلد العيال.. تلمحت فيه.. وقالت لي.. عيب استح.. العيال يجون من فوق.. من فتحة السقف».

أضاف:

- (استحيت أسألها عن زوج فتحة السقف!).

قال «غرم الله»:

- «تفتكر يا مغفل انها بتقول لك.. !»

....

....

(١١) حمـارة حميـدة

• راحت من الوادي، وجاءت من الطريق المنحدر تحت بيت الشيخ..هزت رجليها إلى جانبي بطن حمارتها، فزعت الحمارة العجوز، كانت ترفع رجليها، كما لو كانت تخطو بثقالات من الحصى.. ثقيلة بطيئة. حركت الحمارة ذيلها، نفضته في الاتجاهين: من الشمال، ومن اليمين، ومروحت به في الهواء.. تطرد «الهمج» المتهافت حول مؤخرتها مثل حومة الذباب.

شخرت. شخرت، رفعت رأسها إلى امتداد رقبتها المغطاة بشعر متقافز مثل الإبر، لوت الرباط وقتما اهتزت وفزعت.

أوقفتها حميدة، وهي تدعوها للثبات، على مهل:

- «هوش.. هوش.. هوش..!!».

ثبتت الحمارة.. اختلت ركبتا حميدة، كادت تقع إلى الخلف.. غير أن قبضتيها المتماسكتين شدتا «الحلس» المربوط تحت رقبة الحمارة، وتحت ذيلها.. أمسكت الرباط في شمالها، وتمسكت بقبضتها اليمين..هزت برجليها وقالت:

- «هش.. هش».

خرجت من بين أشجار العرعر عميقة الخضرة، اقتربت من ساحة البيت. أوقفت الحمارة بخبطة جامدة في رقبتها، ونزلت.. فقالت الحذاء المجلدة على الأرض: «طرق»، بقوة.

سوت ثوبها الأسود المطرز، من الخلف ظهرت التجاعيد متكسرة مكان مقعدها.. صفعت طرف الثوب، وعملت الشرشف:

لفة لفتين، ولفه أخيرة من فوق الرأس حتى الرقبة والأكتاف.

قادت الحمارة من رباطها الطويل، وركعت تربطها إلى جانب «المعلف» الخالي..مشت إلى وسط الساحة، ونادت:

- «يا أهل البيت.. يا عيال !».

خرجت بنت في العاشرة، لمحت حميدة، امتلأت عيناها، جرت إلى الداخل.. قالت:

- «أبي.. أبي.. حميدة جت !».

قال الشيخ، على الفور:

- «أهله الله...عدّي».

خبطت حميدة على حلق الباب، قال الحلق الكبير: «طرك.. طرك».

مشت إلى الداخل خطوة واحدة. كانت الشمس قد سيطرت على النظر، عندما دخلت لم تقدر على التأكد بعينيها.. قالت:

- «السلام عليكم.. والعون».

مدت يدها.. صافحت الرجل، لثمت زوجته والبنات: لثمتين.. لثمتين، على الخفيف. تواسعت البنات. قعدت حميدة إلى جانب امرأة الشيخ، سألت عن الحال. انبرم الحديث حول الشمس المنصبة مثل السهام، بعدما كانت الرياح والبرودة تميتان الناس قبل دخول الوسمية.

اطمأنت إلى أن باب الحديث انفتح.. طرحت الكلام على

الشيخ:- «العلم خير.. قل يا الله في الخير !!».

قال:

- «خير.. قولي».

رفعت صوتها:

- «أنت تعرف.. بلادي وزرعي قليل.. والناس عينهم في حق الضعيف.. واليوم ندرت الوادي أطوف.. لقيت فيه ناس سووا طريق من وسط الزرع.. ما أدري متى.. لكن الزرع مدهوك.. وهذا الفعل ما يرضي الله.. ولا يرضي رسوله.. وذا الحين.. أبغيك تقول للناس في المسجد..هذا الكلام ما يصح..»

ارتفع صوتها أكثر:

- «هذا الفعل ما يصح.. ولا ايش رأيك ؟!»

ابتسم الشيخ.. ردد بصوت هادي:

- «ما حصل إلا الخير.. أبشري بالحق».

قالت:

- «الحق.. أن هذا الفعل ما يصير !»

قال:

- «تعرفين.. من هو اللي عدى.. وسوى الطريق ؟»

قالت:

- «لو كنت أعرف..كنت فضحته من الله ومن خلقه ».

قال:

- «الحل..نكلم الناس يوم الجمعة في المسجد.. وما فيه أحد يرضى بالخطأ..».

كانت ستضيف كلاما كثيرا، لكنها ابتلعته، نظرت إلى زوجة الشيخ:

- «كيف حال عيالك ؟».

قالت زوجة الشيخ.. أن العيال يحبون اللعب في الشمس ،تحت أشجار اللوز.. وتمنت ألا تصيبهم ضربة الشمس، فطول الوقت يجلسون هناك.

قالت أنها ستقوم لتعمل دلة قهوة بالجنزبيل.

لم ترد حميدة. صراحة، بسكوتها، ترغب في القهوة.

قام الشيخ، قال أنه سيروح يتفقد العيال تحت أشجار اللوز، فالثعابين تخرج كثيرا وقت القيلولة.

(١٢) أمطـرت

استوت الحنطة، وسنابل الشعير إلى جانبها.. أما العدس فظهرت حبوبه خضراء ممتلئة.. استمرت بشحوب واصفرار، أو اخضرار، فنضوج.

كانت السماء صافية منذ الصباح، إلى أن يؤذن للظهر، ويأكل الناس غداءهم: في الغالب طبيخة العدس، أو بقايا الذرة المطبوخة بالملح والبهار.

من بعد الغداء وزوال القيلولة، تهب رياح رطبة، تغيم السماء.

استمرت الحال لأيام سبعة من الخميس إلى يوم سوق الخميس. يجلس الناس بعد الظهر في البيوت. يكبر التوقع ويكبر، كلما صار لون الغيم كحلا.

لابد من سقوط المطر، والغيم دليل يعلن مجيئه.

صدر الهابطون إلى السوق يوم الخميس، بحميرهم المحملة بالتمر، والنبق، والشار، والريحان، والكادي، والسكر، والشاهي، والبن، والجنزبيل، وحب الهيل، والدخان الأخضر وأشياء أخرى.

باعوا العنب، والبرشومي، والأنقاص والحماط، والقضب في سوق الخميس.. وسط القرى المجاورة، واشتروا بأثمانها حاجياتهم.

ربط الناس حميرهم، وشالوا الخروج المنتفخة بالمقاضي.. جلسوا للغداء.

دقدق الراعد.. جاء رشاش خفيف، بلل التراب في الساحات. قال الناس:

«يا كريم».

استغفر الأطفال الرب، وأرعدت. أرعدت، رمت بالماء على هيئة قطرات كبيرة. امتلأت الخلجان والسواقي، وجرت المياه إلى مواطئ الزرع والشجر.

(لو زاد عن هذا الحد يضر بالزرع.. يضر السنابل ويفتتها، قال الناس: «سقينا وروينا». توارد الخوف في القلوب: سيضر بثمار اللوز والمشمش.. وكل الثمار الطالعة و ما بداخلها)

خرجت زوجة العم سعيد الأعمى من الباب. رمت بمنفاخ القبس في الساحة، وقالت لعيالها أن المنفاخ يرد من غزارة المطر. وحذرتهم من الخروج.. فالصواعق لا ترحم أحدا !

تساقطت قطرات كبيرة، من فتحة السقف، على القبس المشتعلة تحتها. وتصاعدت:

«طش.. طش.. طش».

قال العم سعيد الأعمى لزوجته:

– «من يوم الخميس اللي فات.. وأنا أقول لك..غطي الفتحة.. لكن عنادك ما يودي لخير !».

غطت رأسها وكتفيها بجبتها القصيرة، صعدت من الدرج القصير، أغلقت الفتحة بالصحن النحاس القديم. وقع المطر «طن.. طن.. طن».

وضعت على الصحن حجرا، كان بجانب الفتحة.. هبطت بحذر ودخلت، رمت بجبتها جانبا، حتى تتفقد الأولاد، وتعلقه في وجه الدخان قدام القبس.

قالت لزوجها:

- «هاه.. خلاص.. غطينا الفتحة.. فكنا من الموضوع.. أهجد!».

كاد يخرج كلاما ساخنا..لكنه صنت لوقع المطر على السقف وفي الساحة.

خف المطر قليلا.. قليلا.. حتى توقف. خرج الأطفال إلى الساحات يغزلون الحكايات عن قوس قزح.

امتلأت المزارع، وفاضت البلاد بماء السواقي.

قال العم سعيد الأعمى لولده الكبير:

- «ذا الحين..الحمد لله.. وأنا أبوك..لا تسرح تسقي الزراعة بالثيران..ولا تغدي ولا تجي.. سقاها ربك من فوق !».

رد مسفر، وهو يفرك كفيه قدام لهب القبس، وقد قرفط جسمه القصير في «كوت» أغبر قديم:

- «الحمد لله.. نفك نفوسنا من تعب السواقي».

جاءت «سعدية» بلوازم القهوة.. وضعت الدلة على الكانون، نقّت حبات القهوة، وفص الجنزبيل، حطته مع البن بعد التحميص في المهراس.

هجدت الدنيا، وارتفع رنين المهراس: «ران.. رين.. ران.. ران.. رين».

سأل أحد أولادها:

- «هو صحيح.. قوس قزح نسيته الشمس في السماء ؟!».

أجابته ببرود:

«قوس قزح.. آها.. طلع يرد المطر.. خلاص ما فيه مطر !»

استفسر:

- «طيب.. وليش ملوّن ؟!»

ردت بضيق:

- «أوه.. ملوّن !!.. الشمس والمطر لونوه !».

قبضت على عروة الدلة بطرف ثوبها، لمست الحرارة في كفها، صاحت:

- «آح.. آح».

-

اندلق قليل من القهوة على القبس فطشطشت، وحرفتها إلى تحت الكانون، على الرماد الدافئ.

حلّق البخار الممزوج بالجنزبيل وحب الهيل.. امتزج بالدخان.

وصبت القهوة في الفناجين، بهدوء، وراحة بال، متراخيين.

(١٣) الخـــط

كان رأي كل الرجال لا ينقط منه الماء.

كل واحد بمسحاة، أو عتلة، أو منقبة، أو زنبيل، أو منثل.. أياد أخرى من الخارج لن تفتح الخط للسيارة، مسافته أربعة كيلو مترات.. مرات في الجبل.. ومرات في طرف مزرعة !

الحكومة يومها بسنة، ولو أنها ستفتح خطا للقرية.. لفتحت للبلد.. أو لمكان السوق.. منذ زمن ! لكنها بعيدة.

هاجت الأصوات، علا الرنين، تشمرت السواعد، عصبت العمائم، وحمل الجميع أشياء من عدة الشغل في أيديهم. مروا وقت طلوع الشمس، ببيت الشيخ.. رمى جبته بالكمر وأخرج من بيته عدة شغل، كثيرة وجديدة.

جاءت القهوة تطفح بالجنزبيل وحب الهيل.. شرب الجميع وشربوا أيضا الشاهي

أرسل الشيخ ثلاثة شباب لإحضار الطبول. طلب من قارعها بمساعدة البعض، تسخينها وشدها، لتملأ بصوتها كل الوديان والجبال.

خرج الجميع من المجلس، يحشدهم الحماس، وتملأهم الهمة.. قرعت الطبول فحمى الحماس.

أخذت الدائرة تكبر، وتكبر، وتتسع.

جاء صوت «أبو جمعان» في المقدمة:

- «خلوا الأولاد يسكتون.. خلوهم يقفون في الوراء».

صاح «مسفر القصير»:

- «يا جماعة.. وحدوا الله.. ورتبوا نفوسكم».

قال واحد:

«اصطفوا اثنين اثنين.. الشمس بتحمى علينا.. هيا».

ونادى الشيخ، في المقدمة، مع «أبو جمعان»، بنزول الشاعر.

نزل الشاعر الممتلئ بالعافية، ألقى بفأسه وسط الدائرة.. لف لفتين داخلها وهو يحدو:

(يا هلا وألفين سهلا بالذي فيهم مـروة.. يا للا يا له للا يا له للاله».

ردد الناس القول. جهة اليمين يبدؤون، جهة الشمال يردون.

لفوا لفات، لا تزيد عن خمس، مشوا في طابور واحد طويل رفيع الذيل، في طريق واحد يعوج ويستقيم، يطلع وينزل.

«نقّاع الزير» يمشي جنبا إلى جنب الصف الطويل ويضرب.. يضرب.. يضرب الطبل ضربا متزاحما.

وقفوا عند الحد الأول، خارج القرية، على مسافة ساعة هللوا، وكبروا، وشرعوا في الحفر والتسوية.

جملة الناس تحضر من هنا، لتلتقي بجملة ناس من هناك، وتجئ جملة ثالثة بالفؤوس.. يبسطون ويسوون التراب المختلط بالحجارة الصغيرة، في زنابيل المناثل.

يقفون وقفة قصيرة، يشربون الماء من القرب المحمولة على ظهور الحمير على امتداد مسافة الشغل. حميت الشمس تصب جهنم على الرؤوس الملفوفة بالعمائم. حمى التعب يتسلط آلاف المرات، في البطن الخالي، والقدم الواقفة، والعضل الموزع بين الحفر والتدميس.

البيت القريب، أقرب مسافة، وبيوت جماعته.. يعرفون يكرمون الجماعة الكبيرة.. يعرفون يختارون الذبائح التي لا يمكن لغيرها أن تغذي البطون الخالية والسواعد العاملة.

رمى الشيخ بمسحاته على الأرض، تدحرجت قليلا. قعد إلى ظل شجيرة، فك عمامته المشدودة على رأسه، نفضها في الهواء نفضات قوية فقالت: «صك.. صك» نفض داخلها النظيف نفضتين، مسح وجهه ولحيته وجبينه ببطن العمامة، أشار إلى شاب منغمس في التراب.. لم يلتفت، ناداه باسمه فلبى.. أوصاه بالذهاب إلى الرجال الواقفين مع حريمهم، يعدون الغذاء، وأباريق ماء الوضوء، وغيرها..

أوصاه أن يستعجلهم في تجهيز الغذاء، فالشمس حميت، والتعب يأخذ نصيبه. أوصاه بتجهيز القهوة أولا، وقبل كل شيء.

فك الشاب عمامته المحزومة بوسطه، نفضها، قالت كثيرا من «صك»، نفض قبعته المعفرة بالتراب، كان قد ألقى بمنقبته ومنثله جنب مسحاة الشيخ.. وقف قليلا، خلع نعليه، ضرب في بعضهما البعض ففر التراب، وبقى سواد أغبر مكان رشح القدمين.

رمى بهما للأرض، تقافزتا، انقلبت أحداهما فعدلها، صفع بيديه على جانبي ثوبه، خرج تراب مبعثر. قال للشيخ أنه سيروح لهم

في الساحة. غمض الشيخ عينيه.. وفتحهما، فدارت في رأسه ثلاثة أمور، اشتبكت وتمازجت في عجلة، كما يشتبك الغبار بضوء الشمس.

(أول باب: الآباء والأجداد كانوا يحضرون أحمالهم على الحمير والجمال، والحمير والجمال تمشي في الطريق التي تطأها القدم، والحمير والجمال تصعد الجبال وتهبط الوديان، وتأكل من الشجر وعلف الحبوب وكل أخضر في البلاد.. ولا تحتاج إلى سكة ولا إلى أشياء أخرى).

(ثاني باب: يقولون، السيارات تنفع، وتشيل أحمالا أكبر من أحمال الحمير والجمال ،وتشيل المسافرين من عند بيوتهم إلى مكة، وتجيء بالجاز، وتجيء بالحطب، وتجيء بالحبوب الأمريكية.. بدلا من إحضار هذه الأشياء بالحمير والجمال.. تجيء السيارات وعلى ظهرها الأحمال.. صحيح أن راعي السيارات غريب، ويجيء البلد في أيام معدودة من السنة، ويأخذ أجرة أغلى من التي يأخذها صاحب الجمل، وصحيح أن البعيد أقترب، وابتعد القريب، وتكلم الحديد – وهذه من علامات القيامة – وصحيح أن الدولة تقدر تفتح خط.. لكن..

جاء الخير وقلت البركة.. من يوم أصبح الصديق ينسى صديقه، والرحيم ينسى رحيمه، والقريب يتعادى مع قريبه، وأصبحت الفلوس هي التي تسوى الرجال.. تتحكم في القريب والبعيد.. خرب الزرع وقلت البركة.. وخربت الدنيا.. وأصبح الناس يحبون حنطة أمريكا، والشاهي السيلاني، ويسافرون ويجيئون. ومن يوم صار البترول يأخذ الناس، وينسى الشباب أراضيهم وزراعتهم،

وحق آباءهم وأجدادهم.. وصاروا يتمسخرون بالبلاد وخيرها: كان يجب أن نفتح درب للسيارات، ونجى بمواطير لنزع الماء ورفعه، ونشتري الحنطة الأمريكية، ونسمع أغاني الراديو، ونلبس البفت الأبيض والنايلو.. مرة نضيع.. ومرة نصبح رجالا).

(وثالث باب: بكرة تجئ السيارات، وتروح وتجئ.. بكرة نطالب الدولة، والدولة غنية.. تفتح مدرسة لأولادنا.. يتعلمون (عجن.. خبز)، ويتعلمون دينهم ودنياهم.. بدلا من رواحهم مسيرة نصف يوم على أرجلهم يدرسون.. بعضهم يمرض وبعضهم يختطفه السيل وقت الوسمية.. ما يجئ إلا خبره، وبعضهم يسقط كل سنة.. مرة يروح المدرسة، ومرة ما يروح).

امتزجت الأبواب الثلاثة، بأصوات الحفر والدق في الأرض، علا اختلاطهما بالغبار، وسعال الجماعة، وتشابك حركتهم.

كانت عيناه، بين لحظة ولحظة، تقفان عند حد فأس، أو انقلاب منثل، أو ضربة عتلة.. يذهب الفكر هاربا من باب.. يقف.. ويفتح بابا آخر.

رفع «أبو جمعان» صوته.. كان يبدو للشيخ وكأنه صوت معروف ومحبب، ومصبوغ بالتمباك:

- «يا جماعة الخير.. همّوا.. همّوا شوية.. الشمس تحمى علينا».

دخل بصوته أذني الشيخ. طاف بداخلهما. قام.. فرد عمامته.. برمها برمتين.. مسكها من طرفيها، شدها بقوة، من الزاويتين، على رأسه الأصلع السمني اللامع في سطوع الشمس الحامية.

نفض ثوبه. صفعتين جانبيتين.. مشى إلى فأسه المرمية: هراوة برأسها حديدة جامدة.

جذب طرف الهراوة، جاء إلى جانب التراب المائل، وغمس الفأس.. لم يجذب ترابا كثيرا.

ضرب بالحديدة الحادة في الكومة بقوة، قالت الفأس وهي تخترق بطن الكومة: «تشخ». تأكدت له قوة دخولها في التراب، وسحبها.. اجترت معها كمية أكبر من حجمها بكثير.. سحب.. سحب.. تفرع التراب، مع السحب، من الجانبين.

سمع شكوى تنضب من صوت وقور، رفع فأسه، التفت خلفه. كان الغبار يحجز النظر، فرقعت الفؤوس والمناقب، تهابدت المناثل على الأرض.

جرى الشيخ خطوات إلى حيث بدأ الغبار ينكشف: شايب ضرب قدمه بالفأس.. انجلخت قدمه.. ونزى دمٌ تلبّد بالتراب.

كان الشيخ أول من فزع.. حط عمامته بحركة سريعة، ربطها، بكل ضخامتها، على قدم الشايب.. رفع قدمه إلى أعلى قليلا.

كان الشايب يجلس على مؤخرته.. يمسك بطرف ساقه ويتأوه.. يعصر وجهه وشفتيه.. ويتأوه..

جاء «أبو صالح» بأخواط خضراء من نبات العثرب، المتناثر كما القضب، مضغه تحت أسنانه، تقاطر ذوب العثرب.. سكبه من فمه وهو يقضمه بعجلة.

فك عمامة الشيخ.. قال الشيخ:

- «على مهلك.. على مهلك.. الرجل يصيح من الوجع !».

رد «أبو صالح»:

- «ولا يهمك.. العثرب دواء الجروح».

حضر شاب، اندفع نحو نبتة عثرب مخضرة، قطف ملء يديه مضغ.. مضغ، صبه بلعابه وحموضته مكان الضربة.

تجمع الحفارون.. عالجت وجهات النظر الحالة.. قالوا.. نحمله إلى البيت، قالوا.. نوصله مكان بيوت الغداء الذي قارب أن يجهز.

قالوا.. نضعه في ظل الحجيرة، ونسقيه ماء.

جرى شاب إلى حمارة ترعى، محملة بقربتين مطليتين بالقطران، ممتلئتين بالماء..حط شدهما، رفع ركبته، وأنزل القربتين إلى الأرض.

حمل واحدة على كتفه، كما تحملها النساء، لكن بخفة وجرأة. أخذ طاسة ،قال الماء وهو ينفرط في الطاسة: «تشاخ..» اهتزت الطاسة في يده قليلا، وتمكن من تقديمها للشايب، قال:

- «لا والله إلا الماء.. مداوى جرح الكبير..خذ.. أشرب.. أشرب.. الشمس حامية».

ناولها بيد متمكنة، يمسك بيده اليسرى على رقبة القربة، يمنع انفراط الماء، أمسك باليمين على رباط فم القربة.. لواها لوية.. لويتين..شدها، وسكت تقاطُر الماء من التسرّب !

كان الشايب يتكئ على جنبه اليمين، ثنى ركبتيه، سحب قدمه

المضروبة: ملفوفة بعمامة الشيخ.. تجمد ذوب العثرب..تعدى رباط العمامة.. فظهر.. كما يظهر الحناء الأخضر المتماسك.

قليلا، وصاح الشيخ:

- «الله يعطيكم العافية».

رموا بكل ما في أيديهم.. حطوا عمائمهم، هبت أصوات العمائم في الهواء: «صك.. صك».

تصاكعت بغبارها وعرقها وتعبها. كان من المستحسن أن تصحب العرضة إيقاع الطبل، لكن التعب لم يترك جهدا آخر.

ضرب ناقع الطبل طبلة، ضربه ضربا متشابها خامد الرتابة، علا رنينه، حتى سمعه الذين يجهزون الغداء.

تقدم «مسفر القصير» و «أبو صالح».. أمسكا بيد الشايب، أوقفاه، أخذ يطأ بقدمه الأرض وطئا خفيفا، يمس بها وجه الأرض قليلا ويرفعها.. وهما يسندانه من الجانبين.

كان قد خف ألمها، وتجابس الجرح قليلا.

قال «مسفر القصير» وعمامته تتذيل من على كتفيه:

- «على مهلك وأنا أخوك.. الله يعطيك العافية».

قال «أبو صالح»:

- «لا والله سلامة.. الله يعطيك العافية يا رجل».

قال الشايب:

- «آه.. آه.. ضاع الشباب.. يبغى لي شهرين حتى تطيب.. ويا

الله العافية».

رد «أبو صالح» يريد التخفيف عليه:

- «لا..لا..لاتقول.. إن شاء الله قريب وهي طيبة».

تواردت كثير من عبارات التخفيف:

- «سلامتك يا بو جار الله».

- «ما تشوف إلا العافية إن شاء الله».

- «ذا الحين نروح.. وتستريح على طول».

- «الله يخفف عنك».

- «في رجل العدو.. إن شاء الله».

- «ما حصل إلا كل خير».

- «إن شاء الله..كلها يومين وتطيب».

- «الحمد لله.. ما جت في عظم الساق».

- «ربنا ستر..خلاص.. الحمد لله».

تقاطروا، بغير نظام إلى مكان الغداء.

في الطريق، قال «أبو صالح»:

- «الله.. يا ذا الزمان.. بكره يسير الحديد من هنا.. وينقل لنا كل ثقيل.. الله الله !».

علق واحد:

- «الدنيا.. يابو عبد الله.. تغيرت».

قال الشيخ:

- «لازم نساير الزمان.. وصاحب المثل يقول..إذا ما طاعك الزمان فطيعه».

استراح «أبو جمعان» للقول، وردد:

- «على قدنا.. وبجهدنا.. والله يعين.. مد رجلك على قد لحافك».

راح الشباب يتصورن غدهم.. لو كانوا يسوقون السيارات، وهي محملة بالأرزاق، والنساء والأطفال، وكذلك الشيبان يرقبون السيارة من فوق البيوت.

وصلوا مكان الغداء.. وجدوا في انتظارهم أباريق كثيرة مملوءة بالماء للغسيل والوضوء، تناثروا حول البيوت، يبولون ويتوضأون.

تفرقت بقع من آثار الماء.. بدت الساحات كلها كأنها ظل شجرة كبيرة تسطع من فوقها الشمس.

صلوا الظهر، خلف الفقيه الذي كان ينتظرهم. جاء الشباب في المجلس الكبير، بعدد من الدلال الفائضة بالقهوة ورائحة الجنزبيل وحب الهيل.

فاحت رائحة اللحم والمرق. كانت البطون تتهيأ لها بكل جوفها. بعد قليل.. دخل الرجال بستة صحون، كل رجلين يحملان صحنا محفوفا بكسر الخبز.. في الوسط طاسة كبيرة تمتلئ بالمرق. تحوم على سطحها حبيبات كثيرة من الفلفل الاسود، وقطع البصل

الصغيرة البيضاء.

قال المضيفون:

- «الله يحييكم.. هيا أردوا».

تقاربت الزلف، كل زلفة على صحن. كانت السعة كبيرة وكانت رشفات اللقم المملوءة بالمرق تبدد السكون والكلام.

لم يخرج أحد ليغسل يده، انتظروا قليلا..كل رجل يمد يمينه على ركبته اليمنى.. يدلّي أصابعه نحو الأسفل، ويقعد إلى جانب الجدار.. حتى يجئ اللحم.

مرة أخرى قال المضيفون:

- «الله يحييكم.. أردوا».

كانوا قد وضعوا للشايب صحنا صغيرا، ممتلئا باللحم السمين.. بلل الدسم كل الأيدي، شبعت البطون، وجاء الأولاد بأباريق الماء ومسحوق الصابون. راحوا يصبون على الأيدي، والأيدي تفرك الدسم.

قال الشيخ، وهو يغسل يديه، وقد فركهما بقوة:

- «هذي نعمة من الله».

ما كان الشيخ يريد هذا الرد.. لكنه قال:

- «الوسمية أثرت في الرعي.. وفي الغنم.. في كل البلاد».

قال واحد، حاول تخليل أسنانه بروؤس أظافره، لولد يقف أمامه:

- «روح.. وأنا أبوك.. هات عود من المقشة أتخلل به !».

كان أبو جمعان قد جلس متربعا، وقد أخرج علبة التمباك.

قال «أبو صالح» للمضيفين:

- «يـا جماعة الخـير.. مـا و ديتـوا غـداء مـن اللحم لسعيد الأعمى؟».

وأضاف:

- «أعني أبو مسفر !».

أجابوه بنعم.. أرسلوا له قبلما يتغدى الجميع.

جاء الشباب بالشاهي، على صحن وسيع كبير.. فناجين من «عقال فيصل»، وفناجين من «ساق سلوى».

قال الشيخ:

- «يـا جماعة الخـير.. بكرة في الصبح بـدري.. قبل طلوع الشمس.. إن شاء الله.. نسرح شغلنا بدري».

... راح الناس إلى مشاغلهم بعد الظهر.

... مضت ثلاثة أيام.. كان الحفر والتسوية في الأرض والجبل، امتد طويلا.

قال البعض:

- «لا.. ما بقي إلا القليل.. كلها ثلاثة أربعة أيام ويصل الخط بيوتنا».

قال آخرون:

- «لا تتهاونوا.. الأرض قاسية، وتحتاج لحفر قوي.. تحتاج لأيام أكثر من أسبوع».

من اليوم الرابع.. جاء واحد من السفر.. مر على الحفارين.. سلم عليهم سلاما حارا مؤكدا رضاه وتشجيعه، كانت له دراية قليلة بأمور السيارات.. قال:

- «يا جماعة.. كلكم بركة وخير.. وشغلكم يرضي العين. لكن أنا أشوف الخط ضيق.. ويحتاج إلى وسع في العرض!».

تقاطر نداء متشابه:

- «يا بو صالح.. يا بو صالح.. الله يبشرك بغايبك».

كان «أبو صالح»مغبرا إلى قمة رأسه.. أقام جذعه المنحي.. رفع رأسه.. طفحت في وجهه ابتسامة، قال ملتفتا إلى ابنه «صالح «مقبلا نحوه:

- «حيا الله الغايب.. يا هلا.. يا هلا.. جيت في أحسن وقت.. يا هلا».

قبّل «صالح» أباه في الخدين، وواحدة في أعلى الجبين، وقبّل من لم يقبلهم قبل السلام، لكن بدون واحدة كبيرة في أعلى الجبين. قال «أبو صالح»لابنه:

- «ذا الحين.. أنت تعبان من السفر..لازم تروح البيت تسلم على أهلك.. وبكرة إن شاء الله نرسل سعيد بن أحمد على جمله.. يحمل عفش السفر من السوق.. بعدها.. الله يعطيك العافية.. تجئ

تشتغل مع جماعتك».

استأذن «صالح»، مشى على قدميه القويتين إلى البيت، لم يكن أحد في البيت قد علم بمجيئه.. استقبلته زوجة ابيه، ابتهج إخوانه الصغار، أخوه (أحمد) جلس إلى جانبه يسأله عن أشكال البيوت والسيارات في مكة.

** ** **

عند وقت آذان الظهر، في اليوم الرابع، قال الشيخ:

- «الله يعطيكم العافية.. الله يعطيكم..».

ضرب الطبال على طبله، رموا بكل ما في الأيدي، وراحوا البيوت مضيفة أخرى قريبة من نهاية الخط المحفور.

بعد الصلاة، بعد شرب القهوة، بعد الغداء، في وقت شرب الشاهي.. قال الشيخ:

- «يا جماعة الخير.. العلم خير.. بكرة بنسرح في الصبح نكمل شغلنا، وكلها أيام قليلة.. إن شاء الله. ويصل الخط بيوتنا.. والخط سويناه لمصلحتنا كلنا.. الغني والفقير.. ولازم نتعاون جميع.. القوي والضعيف.. ونحن مثلما تشوفون.. يضايقنا في الخط بعض البلاد المزروعة..».

علق «أبو جمعان» بتأييد:

- «أيو الله.. نعم كلامك صحيح !».

سحب شفطة قوية من سيجارته.. حجبت لحيته وكل وجهه. كان «أحمد بن صالح» يغرز عينيه بتحديق واضح في وجه أبو جمعان.

واصل الشيخ:

- «مثلما قلت لكم.. فيه بلاد فيها زرع.. تضايق الخط.. ولازم نتشاور ونشوف ايش الحل في رأيكم ؟!».

أضاف بعد وقفة قصيرة:

- «وسلامتكم !!».

عدل من جلسته المربعة، مد كفه اليمين إلى عمامته، زحزحها عن جبينه.

قال (أبو صالح):

- «سلمت.. الخط.. خطنا جميع.. مثلما قلت.. وانحن تعبنا وإلى الساعة بعد نتعب..لكن الواجب علينا نضحي. نفكر كلنا.. ونتشاور قبل ما نحط أيدينا فيه.. وأنا في رأيي إن راعي البلاد اللي فيها زرع.. الله يعينه.. لازم يغمض عينه شوية.. هو وأنا والثالث والرابع وكلنا..».

قال «أحمد بن صالح»،وهو يجهز حاله للقول في كل لحظة:

- «صحيح..لكن كيف يروح جهد الواحد منا.. في الوسمية والتعب؟!..كيف يروح زرعه وعرقه خسارة. عشان الخط ؟.. أنا أشوف ان المسألة ما هي مناسبة».

رمى «أبو جمعان»، بنترة قوية من ذراعه، بعقب السيجارة من شباك البداية إلى الساحة.. تنحنح وقال:

- «انحن قلنا.. كلنا عندنا زرع.. وعندنا بلاد.. ولابد الخط يعدي على الكثير منا.. ولا بد نضحي».

كان الشيخ يجهز ردا درسه مع نفسه.. قال:

- «يا جماعة الخير.. كل عقدة لها حلال.. غضب الله على الشيطان.. والشيطان مع مناقض الجماعة..أنا أشوف ان الذي بيعدي الخط من زرعه.. الله يخلف عليه.. نشوف كم يسوى الزرع والعلف.. وندفعه له تعويض.. وخلفه على الله».

دخلت دجاجة بيضاء من باب المجلس، كادت تبول على طرف فراش الخصف. اقترب ولد وحذفها بحذاء، فخرجت.

قال «أبو صالح»:

- «يا شيخنا.. رأيك سليم.. الله يطول في عمرك.. لكن نخيره.. إن كان يبغي دراهم.. وإلا يبغي نجمع له، ونكيل له حب وعلف.. وهو المخيّر».

قال «أحمد بن صالح»:

- «نعم.. وكفاه الله شر الحصاد والدياس.. وبلاش من روح.. تعال..».

استحسنوا الرأي.. راحوا يعددون البلاد التي سيعدي منها خط السيارة، ويقدرون لها مقدارا معقولا من حق الحنطة والشعير والعدس والعلف، قالوا.. يا فلان كذا.. ويا علان عليك كذا.

امتد الأمر في صدر «أحمد بن صالح»، لم يرضه شيء، التعويض الذي سيأخذه عن زرعه لا يمكن أن يعوضه، ولو كالوا له ضعف محصوله.. احتد، زفر في الركن الذي يقعد فيه، قال، بحدة غير منضبطة:

- «يا جماعة.. يا جماعة الخير.. اصبروا.. اصبروا.. صلوا على النبي.. اصبروا.. لا تعدوا ولا تحصوا».

التفتت إليه العيون كلها، لمحته بدهشة وانتظار.

قال «أبو جمعان»:

- «يا بن صالح.. ليش تخرب الرصة.. كلامنا واحد.. ورأينا واحد.. والحل معقول ومناسب.. ويش بعد تبغي ؟!».

قال الشيخ، باندهاش وحذر:

- «يعني ايش الحل في رأيك يا أحمد ؟!.. إحنا قلنا رأينا.. ووافقنا جميعا على الصواب.. عندك حل ثاني ؟!».

قال «أحمد بن صالح»، والكلام ينط من فمه:

- «يا شيخنا.. الأمر ما هو عشاني لوحدي.. فيه ناس أيتام.. وأنتم تعرفون حميدة.. بلادها قليلة، وزرعها قليل.. والخط بيجى من حقها !».

قال «أبو جمعان» في استنكار:

- «يعني يا بن صالح.. الجماعة كلهم يظلمونك لوحدك.. ويظلمون اليتيم لوحده ؟!».

رد «أحمد بن صالح»:

- «أنا ما قلت تظلمونا.. لكن أقول.. دوروا على حل ثاني !»

قال «مسفر القصير»:

- «يا بن صالح.. أنت وحميدة.. وغيركم.. يعني.. حتى أنا..

الخط بيعدي من زرعي.. والحل اللي قاله الشيخ.. هو الحل المناسب لنا كلنا».

قال «ابو جمعان» بحسن صدق:

- «والله العظيم.. يا جماعة الخير.. لو جاء الخط من زرعي.. ما أقول ولا كلمة.. ولا أخرج عن رأيكم.. ولو على واحد من أولادي».

رد «أحمد بن صالح»:

- «يعني.. علشان ما جاء الخط من حقك.. تقول وتقول ؟»

ارتفعت الأصوات من كل جانب، خشى أن يحدث صدام بين «أحمد بن صالح» و«أبو جمعان».. قال مسفر القصير:

- «تعالوا.. ندعي حميدة ونسألها.. ايش رأيها ؟».

أرسلوا ولدا ليستدعي «حميدة» من مجلس النساء.. خرجت وهرولت بدون حذاء إلى باب مجلس الرجال.. دخلت، والعيون ترقبها.. قالت:

- «سلام عليكم يا جماعة».

قالوا، كلهم:

- «وعليكم السلام».

وقفت، عند مدخل الباب، قرب الأحذية.

قال «أبو صالح»:

- «تقدمي.. تقدمي واقعدي».

تقدمت، بخطوة واحدة.

قال «مسفر القصير»:

- «يا عيال.. أخرجوا العبوا.. ووسعوا للكبير».

خرج نفر قليل من الأولاد ،قعدت (حميدة)، ثنت ركبتيها تحت مقعدها، وقعدت. غطت بقية جسمها بالشرشف من فوق الثوب.. كان الشرشف الأبيض الكبير (أبو خط في الطرف) يغطي رأسها، ورقبتها وبقية الجسم.

قالت، مستفسرة:

- «دعيتموني.. خير !!».

قال الشيخ:

- «خير إن شاء الله.. كله خير.. العلم وما فيه.. أنتي تعرفين.. الجماعة كلهم يشتغلون في حفر الخط.. والخط لازم يعدي على بعض البلاد.. وفيه بلاد كثيرة مزروعة.. بيعدي منها الخط.. منها وصلة مزروعة من حقلك».

شرح لها رأي الجماعة، وكيفية التعويض.. ملأت سمعها بحذافير الكلام، وضعت يدها على عود كبريت أمامها، أخذت ترسم به على الحصير، بعد قليل.. قالت:

- «يا جماعة.. أنتم تعرفون.. بلادي قليلة وزرعها ما يكفي مع تعبي.. يعيشنا من الحول للحول !.. لكن إذا كان التعويض كما المحصول.. فأنا أقول الله يكثر خيركم.. وأنا بنتكم.. وبكرة أستفيد من الخط مثلكم».

كان الهدوء يخيم ويخيم، والعيون تصمت، وتتكلم، وتصمت. الكل كان يجد ردا، تقابلت الخواطر، قال «أبو جمعان»:

- «بارك الله فيك.. رأيك أحسن من رأي بعض الرجال».

قال «أبو صالح»:

- «يا بو جمعان.. الله يهديك.. عرفنا وماله لزوم نبحث في الكلام.. حميدة قالت ووفت.. والله يخلف عليها ويبارك».

قال «أبو جمعان»:

- «لا والله.. لكن أبغي أوضح الصواب».

قال «أحمد بن صالح»:

- «أنا بعد أشاور نفسي.. وأشوف سعيد الأعمى.. يمكن يشوف له مشـورة ثانيـة».

قال «أبو جمعان»:

- «طيب يا بن صالح.. نرسل واحد يدعي لنا أبو مسفر.. وقدامنا تشوف رأيه».

انطلق ولد إلى بيت العم سعيد الأعمى، وجده نائما، فقال لزوجته:

- «يا عمتي سعدية..الجماعة أرسلوني..آخذ بايد عمي سعيد، ونروح لهم.. لازم تصحيه».

سمع العم سعيد الأعمى الصوت، نادى زوجته:

- «أسمع كلام.. مين اللي جاء يا سعدية ؟!»

اقتربت من سريره المصنوع من جدائل السعف، قالت بصوت عال، كأنها تتكلم مع أصم:

- «الجماعة أرسلوا.. يبغونك تروح لهم».

تحرك في سريره.. ولم رجليه الممدودتين.. قال السرير: «طرق.. طرق»، استوى في جلسته، وطلب منها ماء.. جاءت بالطاسة.. شرب.. ارتوى.. تقاطر الماء فوق لحيته وثوبه.. مسح شفتيه.. مد يده عند موضع الرأس في السرير، قبض على عكازه الطويل.

نادى الولد، وأمسكه بيده اليسرى، وقف.. وبحث بقدميه عن فردتي الحذاء، فوجدهما تحت السرير.. لبسهما بلين.

تهيأ للخروج.. قالت زوجته:

- «أصبر يا سعيد.. خذ العمامة هذي نظيفة.. حطها على رأسك».

ألبسته، وضعت الجبة الصوفية الطويلة البيضاء على كتفيه.

قالت للولد:

- «على مهلك.. وأنا عمتك.. تعالى من الطريق اللي تحت اللوز».

قال الولد:

- «طيب..»، وأمسك بشمال العم سعيد الأعمى وهو ساكت.

كان يعلم أن العم سعيد الأعمى سيتحدث معه حديثا كثيرا في الطريق.. قال العم سعيد:

- «يا ولدي.. تشتى عيش فيك عاتر.. والا عيش فيك راح ؟!»

عرف الولد أنه دخل في اختبار مع العم سعيد الأعمى.. عرف كيف يلف ويدور ويقلب الكلام.. ويرد عليه بدون ورطة.. قال:

- «يا عم سعيد.. اشتى عيش فيك راح».

رد العم سعيد الأعمى:

- «شاطر.. من علمك ؟!»

قال الولد: - «ما أحد علمني !»

أحسّ بالورطة، كان يكذب، سمعها كثيرا، يعرف ردّها، لكنه لا يدري ماذا تعني؟

قال العم سعيد الأعمى، وهو يمدّ عكازه فيضرب في الطريق:

- «طيب..يا ولدي.. أصابعك صغيرة ؟؟ بعد تطلع فقيه!»

لم يعجبه التنبؤ بالفقاهة، فهو يكره الفقيه.. الفقيه اختبره ذات يوم في سؤال عن آية في القرآن، قدام الجالسين، وعجز عن الرد.. ولان الفقيه لحيته طويلة، ويكثر من الأكل، ويطلب كثيرا أباريق الوضوء.

قال الولد:

- «ما أحب أكون فقيه.. أحب أسافر وأتعلم».

قلّب العم سعيد الأعمى موضوع الحديث، راح يسأله بتفصيلات كثيرة عن مجلس الجماعة، وعن ماذا يتحدثون. كان الولد يرد باختصار، ويقول:

- «لما تصل..بعد تشوف كلامهم».

سأل العم سعيد الأعمى:

- «وين وصلنا ؟»

قال الولد:

- «تحت بيت أبو جمعان».

عرف.. أنه اقترب من مكان الجماعة، مشيا خطوات..اجتازا الساحة، ودخلا.

وقف الجماعة..تفاسحوا لإخلاء مكان «لأبو مسفر».

خلع نعليه، وقال:

- «السلام عليكم»

ردوا، كلهم:

- «وعليكم السلام».

تقدم الرجال.. وكلهم يقول:

- «تعال هنا..»

وأخذه الشيخ إلى جانبه.

قال الشيخ لسعيد الأعمى:

- «العلم خير يا أبو مسفر..أنت تعرف..الجماعة.. يشتغلون في فتح الخط.. والخط منفعة للجميع..».

أكمل له الحديث، سأله عن رأيه في البلاد المزروعة..

قال «احمد بن صالح»:

- «يا بو مسفر..نبغي رأيك».

كانت حميدة جالسة ما تزال تسمع كلام الرجال، قال العم سعيد الأعمى:

- «أنا أشوف رأيكم في محله.. وكلامكم صواب.. واحمد بن صالح.. مثله مثل باقي الجماعة..ومثل حميدة.. ولا فيه رأي غير هذا».

بلغ الحنق والضيق بنفس «أحمد بن صالح» مكانا كبيرا، واحتاج لتدخين سيجارة من التمباك، وّ لويطلبها من «أبو جمعان». لكنه لم يجد فرصة لطلب ورقة محشوة من «ورق الشام»، قرر حبس نفسه.. لو تموت !

تنهّد، وقال بصوت مبحوح..معترض:

- «أنا ما يناسبني هذا الكلام كله.. صحيح فيكم الخير والبركة.. لكن رأيي.. وقت الزرع والوسمية.. ما تعدي السيارة.. ووقت ما تخلى الأرض من الزرع نخلّي السيارة تعدي.. أهل الجنوب كلهم.. من غامد إلى زهران.. ما فيه واحد يرضى على زرعه بالخطأ».

الجميع يعرفون مدى شذوذ رأي (أحمد بن صالح)، والكل يعرف مدى عناده ومعارضته في سبيل أمور لا استقامة فيها.

راح البعض يحك في رأسه، والبعض يخلل لحيته، والبعض ينظر برفض إلى حصيرة الخصف.

قامت (حميدة)، وكما تمشي الدجاجة الملفوفة بالريش الأبيض، مشت على كل الأحذية المترامية عند مدخل الباب الخشبي العريض.. لم تتكلم كلمة، راحت إلى مجلس النساء.

أمور كثيرة في رأس «أحمد بن صالح»:

(بكرة.. لو راح يشتكي عند الحكومة.. يقاطعونه أهل القرية.. يحرمونه من المنفعة العامة.. يحرمونه من المساعدة في حالة الميت.. والعروس.. وطايح البير.. وطينة البيت.. وكل الامور الجماعية. بكرة لو راح يشتكي للحكومة.. الحكومة ايدها قوية.. تجرجر الجماعة واحدا واحدا.. تأخذ أقوالهم واحدا واحدا.. تعطلهم عن شغلهم.. ووسميتهم.. وزرعهم..

بعدين ؟! يكون الحق معهم.. ويرمونه هو في السجن.. وهو لا يطيق الحبس ليلة واحدة).

جاء الشباب بصينية مستطيلة، مرصوصة بفناجين الشاهي، صبوا الشاهي من الإبريق الكبير المدهون باللون الأخضر.. وزعت الفناجين.. من عند الشيخ في اليمين إلى عند آخر الدائرة، عند العم سعيد الأعمى، إلى شمال الشيخ.

تناول الشيخ فنجان (عقال فيصل)، ومد يده به للعم سعيد الأعمى.

قال الشيخ:

- «خذ يابو مسفر.. الشاهي».

قال العم سعيد الأعمى:

- «هات.. سلمت !»

قبل أن يمسك به بين أصابع يده اليمنى، وكفه الشمال، رفعه إلى فمه، شفط منه شفطة قوية، قالت: «شف.. ف.. ف».. حطه في كفه الشمال، أمسك بعروته الصغيرة.

كان «أبو جمعان»، منذ سمع قرقعة الفناجين في الصحن قادمة من الساحة، قد أخرج علبة التمباك الأخضر، وراح يوضبها شارد الذهن، بعيد عن لذة الكيف، لكنه أشعلها وأمتص قطرانها ودخانها.

لم يأخذ «أحمد بن صالح» فنجان الشاهي، كان يفلهم يدخل فكرة ويطرد فكرة.. قال:

- «يا جماعة الخير.. إذا ما كان عندكم حل ثاني.. فمعونتي بالله.. خلاص.. الله يخلف عليه.. لكن أنا ابغي نصف التعويض فلوس.. ونصفه حب وعلف».

بسرعة قال «أبو جمعان»:

- «يعني رضيت يا بن صالح.. لو كان من أول.. وليش نعقد الأمور ؟!»

سكت «أحمد بن صالح» كان ينتظر من الشيخ الرد.

قال العم سعيد الأعمى:

- «خلاص.. يا أحمد.. ما للواحد إلا جماعته.. طار في السماء والا وقع في الأرض.. يعني يا أحمد مالك إلا جماعتك أحسن لك!»

** ** **

عشر قيلات:

من الصبح، قبل شروق الشمس، إلى وقت آذان الظهر.. كان الشغل مستمرا في حفر الخط.. اقترب رأس الخط من أطراف الساحات.. وقعت صعوبات في سفح الجبل.. تغلب عليها الحفارون بالعتل والمناقب، اعترضت هضبة كبيرة وسط الخط، تعاونوا، وقلبتها الأيدي بقلب واحد شديد.. قال الشاعر وقتها:

- «يا معلم.. علم القرية.. هضبة الوادي قلبناها».

لحقت الترديدات:

- «قلبناها».

- «أيوه قلبناها».

أرسلوا إلى السوق، يطلبون راعي السيارة ليجئ بسيارته ويجرب الخط. جاء بسيارته الحمراء: صندوق خمسة أطنان، لها مزمار في المقدمة، لو شد حبله من الداخل.. قال: «طاط.. طاط..».

احتشد الصندوق بالراكبين، وصاح السواق:

- «تمسكوا بأيديكم.. لا تطيحوا..».

قفز الأولاد على الجوانب، خاف السواق، طلب من معاونه طرد الأولاد.. قال الأولاد:

- «أنت معاون.. ما تعرف تسوق !».

وقالوا:

- «ما هي سيارتك !».

اغتاظ السواق.. أوقف السيارة، فتح باب المقدمة، توافدت العيون إلى داخلها العجيب: (ساعات، ودوائـر، وحاجات.. سبحان الخالق !).

نزل، حدق في الصندوق المحتشد، قال:

- «يا سفان.. الله يهديكم.. أقعدوا كما الناس.. لا تطيحون..».

- «لا.. لا تخاف».

- «الله ! ليش تخاف علينا».

قال ولد:

- «نبغيك تضرب بوري.. طاط طاط !».

انتظر الناس وسط القرية، لمحوا السيارة من أول ما دخلت الخط، كانت تتوقف قليلا، وتتحرك قليلا، وتميل إلى الشمال، وتميل إلى اليمين.

علّمت السطوح بالنساء كالغربان، وبالأطفال.

وصلت السيارة، تسبقها رائحة «البنزيم».. حيا الشيخ والواقفون راعي السيارة، عزموه على العشاء احتفالا، ذبحوا الخرفان.. جاءوا بالقهوة والشاهي، والقهوة والشاهي، طول الليل.

قال الشيخ لراعي السيارة:

«هاه.. بشرنا.. كيف الخط ؟! إن شاء الله طيب !».

رد راعي السيارة:

«والله طيب.. لكن يحتاج لشوية تعديلات..إن شاء الله

تصلح».

سأل العم سعيد الأعمى عن السيارة والخط.. قالوا إن السيارة وصلت، والخط طيب، والحمد لله.

سألت النساء عن أكل السيارة وشرابها.. قالوا لا تحتاج !

كانت السيارة تقف وسط الساحة، والأولاد يطلعون.. ينزلون.. ينطون فوق.. يقعون تحت.

خرج «أبو جمعان».. نهرهم:

- «يا عيال.. ابعدوا عن السيارة كذا، ولا تلعبون».

رد ولد:

- «إنت وش عرفك ؟!»

قال ولد:

- «عيب.. هذا أبو جمعان.. اسكت».

تمنّت كثيرات من النساء والبنات أن تكون لهن صلة بالسواق..

تمنى كثير من الشباب أن يتعلموا السواقة..

تمنى كثير من الرجال ركوبها في السفر..

تمنى البعض السفر.

أرشح «عبد العزيز المشري» للعالمية

إننا إذا أردنا أن نصل إلى العالمية فلا بد أن نقدم للغرب شكلاً جديداً لم يعرفه من قبل، وهذا لا يتحقق بالطبع بتقليد «ألف ليلة وليلة»... ولحسن الحظ فإن ثمة أعمالاً عربية «ما بعد حداثية» أصيلة ليس فيها تقليد «لألف ليلة وليلة»، وليس فيها تقليد للآتي من الغرب وخاصة تيار «ما بعد الحداثة»، وإنما تطوير للاثنين معاً، وهو في رأيي تطوير عفوي لا مقصود، نتج عن الصدق في وصف البيئة المحلية والمحافظة على تقاليدها في النص الشعبي الشفهي، ومن هذه الأعمال، بعض أعمال الطيب صالح... وأعمال يحيى الطاهر عبد الله، و«الوسمية»، ولهذا فإنني في نهاية المقال أرشح «المشري» للعالمية.

عابد خزندار

(جريدة الرياض - ملحق ثقافة اليوم

١٤ إبريل ١٩٨٨م)

«الكتابة المشرية»

بدأ المشري كغيره من الكتاب الذي يعتقدون أن الثقافة والفن والجمال في ما يقرأ الإنسان ويحفظ عن الكتب لا في ما يعيشه ويختبره بكل حدوسه وجوارحه.

لكن هذا الكاتب البسيط والأصيل سريعاً ما تحول وحوّل كتابته إلى نص الحياة المفتوح على حكايات ومعان لا تحد وتتجدد باستمرار، مثلها مثل لحظات الحياة ذاتها.. وجّهته حكمة الفلاح وحدس الفنان المبدع إلى تجربة كتابة، سريعاً ما تحولت إلى تجربة، تعلن حضوره المتميز دونما صخب أو افتعال كما تعلن اختلافها بإصرار عنيد وجميل. هكذا أصبحت الكتابة المشرية نموذجاً لأية تجربة إبداعية تستمد قيمها الجمالية والفكرية من أعمال تجربة وجودية.. تاريخية تضرب بجذورها عمقاً في ذاكرة الإنسان وذاكرة المكان وفي ذاكرة اللغة.



د. معجب الزهراني - تجربة الكتابة - الحياة عند عبد العزيز مشري

(جريدة البلاد - العدد ١٥١١٨، في ١٧/نوفمبر/١٩٩٧م)